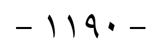
نظرية الحب الإنساني في كتاب

«طوق الحمامة» لابن حزم

دكتورة
منى سعد أحمد سراج الدين
مدرس العقيدة والفلسفة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة
جامعة الأزهر



إهـــــــداء

إلى من أحب الله لأنه عرف كيف تكون عبادته،

وإلى من عبد الله لأنه عرف كيف تكون محبته،

إلي كل من اتخذ الحب مذهبًا

لكل شيء فوجد الحب حقيقة في كل شيء.

منى سراج الدين

" أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف "

ابن حزم الأندلسي

مقدمة

الحمد لله حمدًا يوافى نعمه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمدًا بن عبد الله، وعلي آله وأصحابه ومن والاه.

وبعد...

فإن موضوع الحب الإنساني – رغم أهميته – لم يحظ بعناية أوفر من جانب الباحثين، وخاصة بجامعتنا العريقة " الأزهر الشريف " وإنما أردت ببحثي هذا أن أضع هذا الموضوع في مكانه الصحيح بين موضوعات الفلسفة وأن يأخذ حقه في الدراسة بهدف تحليل هذه الظاهرة الإنسانية.

وإنما وقع اختياري علي دراسة موضوع الحب الإنساني لما لاحظته من تخوف البعض من الكتابة فيه رغم يقيني من أن ديننا الحنيف دين المودة والرحمة، فأقبلت عليه دون تخوف ربما استطعت أن أمحو هذه النظرة الدونية للحب والتى ترجع في تقديري إلى الخلط بين الحب كمفهوم مجرد وبين تجليات هذا الحب خاصة بين الرجل والمرأة أو بمعنى آخر السلوك الإنساني تجاه هذا الحب، كما يرجع إلي عدم التفرقة بين الحب الإنساني لو كان في إطار شرعي عنه لو لم يكن كذلك أى الذي تستقبحه الملة وينهي عنه الشرع. فليس كل حب قبيحًا.

ومما دعاني أيضًا للإقبال على هذا الموضوع ما لاحظته وكان أمرًا لافتًا للنظر أن فقهاء الأمة الإسلامية هم الأوائل بل كان لهم الريادة في المجتمع الإسلامي الذين كتبوا عن الحب الإنساني كأبي داود الظاهري وابن تيمية وأبو الفرج بن الجوزي وابن قيم الجوزية وغيرهم، وناهيك عن كتاباتهم التي استفاضوا فيها في شرح العلاقات الزوجية، فإن

كان هذا من حق الفقهاء أليس من حق الفلاسفة أن يتناولوا الجانب الميتافيزيقي الذي تبنى عليه هذه العلاقة أعني الحب بين الزوجين أو حتى في صورته المجردة ؟!

أما اختياري لدراسة الحب الإنساني عند ابن حزم علي وجه الخصوص فمرجعه في حقيقة الأمر اهتمام الغربيين والمستشرقين بابن حزم من ناحية وبكتابه " الطوق" من ناحية أخرى واعترتني الدهشة حينما وجدت تقدير الغربيين لكتابات واحدٍ من علماء الأمة الإسلامية في الوقت الذي لا يعرف الدارسون من جيلنا كتابًا ككتاب "الطوق" وحين قرأته أدركت أنه واحدُ من أرقى الدراسات الدينية والأخلاقية والفلسفية والنفسية، كما أدركت سر اهتمام الغربيين به، فعقدت العزم علي أن أجعله موضوعًا لبحثي المتواضع هذا.

منهجي في البحث:

حينما اطلعت علي " الطوق " وقرأته جيدًا اعترتني رغبة حقيقية في إعادة تبويبه وعرضه فى شكل جديد ربما يكون أقل إحكاما من تبويب ابن حزم – ما في ذلك شك – ولكنى قصدت ذلك من أجل إظهار كل جوانب الإبداع التي شملها كتاب " الطوق " دون الالتفاف إلى عناوينه كما أنني وجدت من الممكن إضافة عناوين جديدة خاصة بي تلائم الموضوع وتلائم الخطة التي أردت من خلالها تقديم عملًا جديدًا عسي أن يكون فيه الإفادة، ولعلي أكون قد وفقت في التركيز علي كل الجوانب التي يشير إليها الكتاب.

ولكي يتحقق ما أردت إضافته لهذه الدراسة بشكل أفضل لم أجد أمامي لإبراز هذا العمل إلا أن أتبع منهجي التحليل والمقارنة، ففي المقارنة تتوهج خصائص الأشياء وفي التحليل ندرك مدي قمتها وأصالتها، ووجدت أن ابن حزم بما يملك من مقومات لا تتوفر لكثيرين مثله جعلته في مقارنة مع عدد لا بأس به من الإسلاميين بوجه خاص من فقهاء وفلاسفة فقد كانت دراسته أوفي وفكرته عن موضوع الحب تكاد تكون أشمل بالإضافة إلى أنها تتسم بالموسوعية، ولذا لم أخصص واحدًا بعينه في مقارنته بهم بل جعلته وحده في مقابلتهم جميعًا ولم أضف عنصرًا غير إسلامي في هذه المقارنة سوى " مأدبة " أفلاطون لما لها من السبق والريادة، ولما لها من قوة التأثير علي الفكر الإسلامي كله.

وإنما قصدت مقارنة ابن حزم بفكر المسلمين وحدهم لأن هناك من بحث موضوع الحب مقارنة بالفكر الغربي أمثال الدكتور/ زكريا إبراهيم في كتابه " مشكلة الحب " فقد أثار الفكرة من خلال الفكر في الحضارة الغربية في مختلف عصورها من أفلاطون حتى جان بول سارتر.

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث علي مقدمة وتصدير وثلاثة فصول وخاتمة.

مقدمـــة: في بيان مشكلة البحث وتحديد موضوعه وأهميته وسبب اختياري له وبيان منهجي فيه.

تصدير: حول مفهوم الحب ومكانته في الإسلام ثم توطئة في بيان موضوع البحث.

الفصل الأول

وعنوانه: دراسات حول كتاب " طوق الحمامة "

ويشتمل علي المباحث التالية:

المبحث الأول: التعريف بالمؤَّلِف والموّلَف

المبحث الثاني: منهج ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة "

المبحث الثالث: أسلوب ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة "

المبحث الرابـــــع: موقف ابن حزم من الكلام فى الحب الإنسانى

الفصل الثاني

وعنوانه: الجوانب التي اشتمل عليها كتاب " طوق الحمامة "

ويشتمل علي المباحث التالية:

تمهـــــــــيد:

المبحث الأول: الجانب الديني

المبحث الثاني: الجانب الأخلاقي

المبحث الثالث: الجانب المنطقي

المبحث الرابع: الجانب الكلامي

المبحث الخامس: الجانب النفسي

المبحث السادس: الجانب الاستبطاني

الفصل الثالث

وعنوانه: فلسفة الحب الإنساني عند ابن حزم

ويشتمل علي المباحث التالية:

المبحث الأول: نظرية ابن حزم في الحب الإنساني

المبحث الثاني: علاقات الحب الواردة بكتاب " طوق الحمامة " وبه المطالب التالية:

المطلب الأول: علاقة الحب بالحياة

المطلب الثاني: علاقة الحب بالزمن (أطوار الحب)

المطلب الثالث: علاقة الحب بالجمال

المطلب الرابع: علاقة الحب بالحرية والإرادة

المطلب الخامس: علاقة الحب بالإدراك الحسي

المبحث الثالث: خصائص الحب الإنساني عند ابن حزم وبه المطالب التالية:

المطلب الأول: ماهية الحب

المطلب الثاني: أنواع المحبة

المطلب الثالث: درجات المحبة

المطلب الرابع: علامات الحب

المطلب الخامس: علة الحب وأسبابه

المطلب السادس: وحدانية الحب

الخاتمة: وتشتمل على تقييم عام حول موضوع الحب الإنساني ثم أهم النتائج المستخلصة من البحث يليها ثبت بأهم المصادر والمراجع ثم الفهرس.

وأخيرًا: أسأل الله التوفيق والسداد وأن يصير هذا العمل المتواضع علمًا ينتفع به، وفوق كل ذي علم عليم.

الباحثة

تصــــــــــــــــــدير

الحب، تلك العاطفة الأكثر تعقيدًا، والتجربة الإنسانية التي ما إن عاشها الفرد منا لم يلبث أن يهتف موقنًا بجمال الحياة، وقيمة الوجود. هذا السر الميتافيزيقي الغامض فينا، وفي الكون بأسره، السر الذي نحيا به ولا ندرك ماهيته علي الحقيقة.

والخلق منذ أن وطأت قدما آدم أرض الدنيا يعيش ليحب ويحب لكي يعيش، والإنسان السوي جعل مفطورًا علي المحبة، تلك التي تجعلها معظم الديانات فضيلة الفضائل، والمحبة درجات أفضلها وأسماها وأعمقها فكرًا وأكثرها تجريدًا، محبة الله، فالمحب لا يتعلق بذات المحبوب دون العلم بكمال ذات ذلك المحبوب فما بالنا بالكمال المطلق الذي تختلف محبته عن محبه من سواه، فالمحبة بين بني البشر لا تعني بالضرورة أن يصير كل محبوب محبًا لمن يحبه، وإنما تعنى فقط أنه كلما وجدت ذات المحب لزم عنه وجود ذات المحبوب لما بينهما من التضايف، وقد تنشأ علاقة المحبة دون اشتراك المحبوب في تلك العلاقة إلا محبة الله، فبكرمه تعالي يبادلنا حبًا بحب، وبكمال ذاته يكافئنا علي طاعتنا بمحبته ورضاه، يقول تعالي: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (١). فالآية الكريمة تدل على إمكان وقوع المحبة منه تعالي مثلما تقع من العبد، وهذا الإمكان مشروط بالإتباع والطاعة بحيث إذا تحقق الشرط تحقق المشروط، وهو محبته تعالى للعباد بل وغفرانه لهم أيضا، ومحبة الله لمخلوقاته تتجلى في

(١) سورة آل عمران آية رقم (٣١)

أعظم صورها في قوله تعالي: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١). ولأن فينا قبسه من نور الإله جعلنا أفضل المخلوقات وسخر لنا سائر الكائنات، وفضلنا علي كل ما خلق، وأسجد الملائكة لأبينا آدم، ووهب لنا " العقل" آلة التمييز، وهدانا بالرسل، وما المغفرة وقبول التوبة منه سبحانه إلا صورة من صور محبته ورحمته، فهو يحبنا رغم خطايانا بوافر كرم منه بلا توقع أخذ أو انتظار سوى طاعته، ولو لم تكن المحبة أرقى العبادات، وأخلص الطاعات لما جعلها الله جوهرًا لهذا الدين يقول تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (٢)، فالآية الكريمة تدل علي المحبة وعلي تبادل هذه المحبة بين المخلوق والخالق، وعلي أن الدين – بمعنى جملة الأعمال – هو الطريق الموصل للمحبة، وسبب لها، كما يدل علي أن الخلق كان بدافع المحبة، وأن الله بدأ بحبه لخلقه الذين هم أهل لمحبته ورضاه، فكيف لا تكون ذاته تعالي أول موضوع لحب البشر كنوع من الشكر والامتنان علي هذه الهبات التي من ضمنها الحب نفسه الذي خلقه وبدأه لأنه الأقدر عليه لأنه هو الخالق، وأنا أشعر بخلقى وأدرك وجودي، ومن أدرك وجوده أدرك خالقه، ومن ثم أدرك حبه لهذا الخالق العظيم، أو إن شئت فقل من أدرك الله فقد عرف طريق محبته ورضاه.

أجل إن محبة الله هي الحب في أرقى صورة له إلا أن هناك موضوعات أخرى تحظي بالمحبة، فكما يحب الخلق خالقهم يحبون كذلك

(١) سورة الحجر آية رقم (٢٩)

(٢) سورة المائدة آية رقم (٥٤)

مخلوقاته ليبدأ الصراع البشري وهذا الصراع ماهو إلا سلسلة متصلة من صور الحب قد يعيشها المرء كلها أو بعضها، فلا يخلو شخص إلا وقد مارس ولو صورة واحدة من صور الحب أيا كانت هذه الصورة والتي لا تخرج علي الأقل عن حبه لبقاءه الذي هو ترجمة واضحة لوجوده.

ويبدأ الصراع وآدم ما يزال يسكن الجنة حينما اشتهى الطعام (الشجرة المنهي عنها) والتي أخرجته من الجنة الموطن الأول للحب، فأحب الطبيعة (الجنة) وأحب الطعام وأحب المرأة (حواء، زوجه التي خلقت منه) وبذلك الحب كفل آدم بقاؤه ولكن للأسف خارج الجنة، وحفظ نوعه (قابيل وهابيل) ويتوالى الصراع بين الأخوة، ومن ثم بين جميع البشر.

وحب البقاء يضمنه حب أكبر وهو حب الأم لأبناءها حتى ولو كانوا مازالوا في دائرة العدم، فمن حكمته تعالى أن يخلق في قلب كل إمرأه هذا الحب وأن يخلق فيها هذه الغريزة (الأمومة) وهذا الصبر الذى لا يساويه صبر ويلقى علي عاتقها هذه المهمة، ولذا كرمها الله وألصقها بحسن طاعته ثلاثة أضعاف الرجل. فالمرأه بحق هي محور المحبة فهي موضوع لمحبة الرجل وموضوع لمحبة الأبناء وكما يستقيم بها حال الرجل يستقيم بها كذلك حال الأبناء. واللطيف في هذا الشأن أننا نجد فتيات صغيرات تلعبن وتمرحن بدمي صنعنها بأيديهن وكأنهن يعلن صراحة استعدادهن الفطري، ورغبتهن البريئة لقبول دورهن في الحياة، لتدور رحي الإعمار، وعمار الدنيا لن يكون إلا بأناس يعبدون الله وذلك لأن قلوبهم عامرة بالحب.

الفصل الأول

دراسات حول كتاب " طوق الحمامة "

ويشتمل علي المباحث التالية:

المبحث الأول: التعريف بالمؤَّلِف والموّلَف

المبحث الثاني: منهج ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة "

المبحث الثالث: أسلوب ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة "

المبحث الرابع: موقف ابن حزم من الكلام فى الحب الإنسانى

الفصل الثاني

الجوانب التي اشتمل عليها كتاب " طوق الحمامة "

ويشتمل على المباحث التالية:

تمهـــــــــيد:

المبحث الأول: الجانب الديني

المبحث الثاني: الجانب الأخلاقي

المبحث الثالث: الجانب المنطقي

المبحث الرابع: الجانب الكلامي

المبحث الخامس: الجانب النفسي

المبحث السادس: الجانب الاستبطاني

الفصل الثالث

فلسفة الحب الإنساني عند ابن حزم

ويشتمل علي المباحث التالية:

المبحث الأول: نظرية ابن حزم في الحب الإنساني

المبحث الثاني: علاقات الحب الواردة بكتاب " طوق الحمامة "

تمهـــــــــيد:

المطلب الأول: علاقة الحب بالحياة

المطلب الثاني: علاقة الحب بالزمن (أطوار الحب)

المطلب الثالث: علاقة الحب بالجمال

المطلب الرابع: علاقة الحب بالحرية والإرادة

المطلب الخامس: علاقة الحب بالإدراك الحسي

المبحث الثالث: خصائص الحب الإنساني عند ابن حزم

المطلب الأول: ماهية الحب

المطلب الثاني: أنواع المحبة

المطلب الثالث: درجات المحبة

المطلب الرابع: علامات الحب

المطلب الخامس: علة الحب وأسبابه

المطلب السادس: وحدانية الحب

المبحث الأول

التعريف بالمؤَلِف والمؤّلَف

أولا: التعريف بالمؤَلِف (ابن حزم الظاهري ٣٨٤هـ - ٩٩٤م)

اسمه ونسبه:

هو الإمام الفقيه، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولي يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي، وجده يزيد أول من أسلم من أجداده، وأصلة من فارس، وجده خلف أول من دخل الأندلس من آبائه.

مولـــده:

ولد ابن حزم بقرطبة من بلاد الأندلس يوم الأربعاء قبل طلوع الشمس في آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة في الجانب الشرقي منها.

علمه وثقافته:

كان ابن حزم رحمه الله حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفننًا في علوم جمة، عاملًا بعلمه، متواضعًا ذا فضائل جمة، وتواليف كثيرة، وجمع من الكتب في علوم الحديث والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا، وسمع سماعًا جمًا (١).

(١) " وفيات الأعيان " لابن خلكان " جـ٣ صـ١٣ .

وعنه يقول الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي: " ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين، وما رأيت من يقول الشعر علي البديهة أسرع منه "(١). وكان رحمه الله " قمة الفكر الإنساني في مطلع القرن الحادي عشر، في الشرق والغرب في العالمين الإسلامي والمسيحي علي السواء، كان سياسيًا ورجل دولة، شاعرًا وكاتبًا، ومؤرخا، مفكرًا وفيلسوفًا، وفقيها جدلًا لدد الخصومة عنيف الحوار " (٢).

ولقد لقب ابن حزم بألقاب جليلة وكريمة منها: " أحسن شاعر، أحسن فيلسوف، وأحسن متكلم، يثق فيه علماء البلاغة، ويجله رجال الأدب، ويحترمه المثقفون (٣).

مصنفاتـــــه:

كان ابن حزم المفكر الموسوعي، واحدًا من أفذاذ الأعلام المعدودين في تاريخ الأندلس بل في تاريخ المسلمين فهو: المنطقي والجدلي والمتكلم والفقيه والمؤرخ والشاعر وعالم النفس صاحب التآليف الكثيرة يقول عنه ابن بشكوال: " كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم أهل الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار " (٤).

وعنه يحكى أبو رافع الفضل ولد بن حزم " أنه اجتمع عنده بخط

(١) م. س جـ ٣ صـ ١٤ .

(٢) " دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة " د/ الطاهر مكي ص ٧٢ .

(٣) م. س ص ١٠٢ .

(٤) "وفيات الأعيان " لابن خلكان جـ ٣ صـ ١٤ .

أبيه من تآليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل علي قريب من ثمانين ألف ورقة " (١).

ومن أشهر مؤلفاته:

١- " الإيصال إلي فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع " وهو كتاب كبير.

٢- " الإحكام لأصول الأحكام " في غاية التقصي وإيراد الحجج.

٣- " الفصل في الملل والأهواء والنحل.

٤- " كتاب في " الإجماع " ومسائله علي أبواب الفقه.

٥- " مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض ".

٦- " إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل " وهذا معنى لم يسبق إليه.

٧- " التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية ". وقد سلك في بيانه وإزالة سوف الظن عند طريقة لم يسلكها آخر مثله.

٨- " نقط العروس " جمع فيه كل غريبة ونادرة وهو مفيد جدًا (٢)..

٩- " التلخيص والتخليص في المسائل التي لا نص عليها من الكتاب والسنة ".

١٠- " جمهرة أنساب العرب ".

١١- كتاب " حجة الوداع "

---

(١) م . س . نفس الموضع .

(٢) م . س . نفس الموضع .

١٢- " السيرة النبوية "

١٣-كتاب " مناسك الحج ".

١٤-شرح موطأ الإمام مالك.

١٥-كتاب في الرد على ابن النغريلة اليهودي.

١٦-رسالة في " مداواة النفوس ".

١٧-كتاب ابن حزم في الجدل.

١٨-المحلي في الفقه، وهو من أهم الموسوعات الفقهية في المذهب الظاهري.

١٩-ديوان ابن حزم.

٢٠-" طوق الحمامة في الألفة والألاف " وهو موضوع دراسة هذا البحث.

وفاتـــــــه:

توفى الإمام ابن حزم في آخر نهار الأحد ٢٨ من شعبان سنة ٤٥٦ هـــ، ١٥ يوليو ١٠٦٤ م في قريته منت ليشم عن عمر يبلغ اثنتين وسبعين سنة (رحمه الله تعالي).

ثانيا: التعريف بكتاب " طوق الحمامة "

" طوق الحمامة في الألفة والألاف": أحد أهم مؤلفات عالم قرطبة الإمام ابن حزم الأندلسي، وهو من الكتب القليلة النادرة في موضوعه التي حظت بها المكتبة العربية الإسلامية لما اجتمع له من دواعي الأهمية مادة ودراسة، ويذكر المؤرخون أنه من أوائل مصنفات ابن حزم " والكتاب سيرة ذاتية أو هو قريب منها للجانب العاطفي من حياة ابن حزم وهاد إلي الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ممن شغلوا مناصب رفيعة في الإدارة والقضاء والجيش علي أيامه " (١).

وكتاب " الطوق " بجانب دراسته التحليلية العميقة لظاهرة الحب الإنساني يعتبر وثيقة تاريخية للحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية في قرطبة آنذاك.

وهو مقسم على ثلاثين بابًا، ويشتمل على ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول: تناول فيه "**أصول الحب** " وبه عشرة أبواب، **أولها:** باب [ماهية الحب – علامات الحب – من أحب في النوم – من أحب بالوصف – من أحب من نظرة واحدة – من لا تصح محبته إلا مع المطاولة – التعريض بالقول – الإشارة بالعين – المراسلة – ثم باب السفير].

المحور الثاني: تناول فيه " **أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة** " وبه اثنا عشر بابًا، وهي: [باب الصديق المساعد – الوصل – طي السر – الكشف والإذاعة – الطاعة – المخالفة – من أحب صفة

(١) د/ الطاهر أحمد مكي مقدمة تحقيق " طوق الحمامة " ص ٨.

لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها – القنوع – الوفاء – الغدر – الضنى – الموت].

المحور الثالث: تناول فيه " **الآفات الداخلة علي الحب** " وبه ستة أبواب، هي: [باب العاذل – الرقيب – الواشي – الهجر – البين – السلو].

ثم بابان اختتم بهما الكتاب وهما: باب [الكلام في قبح المعصية]، وباب [في فضل التعفف].

وقد استهل ابن حزم كتابه بمقدمة اشتملت على تصدير شرح فيه سبب تأليفه للطوق ومنهجه فيه، ثم عرض خطته التي قسم فيها أبواب الكتاب، وترتيب هذه الأبواب بما يراه ملائما للشكل المنهجي العام الذي يجب أن يكون عليه الكتاب، إلا أنه خالف هذا الترتيب في بعض الأبواب لمراعاة الالتزام باستحقاق بعضها بالتقدم علي غيرها، ولمراعاة وضع الضد بجنب ضده كأن يورد باب " الوصل " وهو من " الأعراض " بجانب باب " الهجر " وهو من " الآفات " فاختلف المساق في أبواب يسيره فجاء ترتيب أبواب " الطوق " على النحو التالي:

[ماهية الحب – علامات الحب – من أحب في النوم – من أحب بالوصف – من أحب من نظرة واحدة – من لا يحب إلا مع المطاولة – من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها – التعريض بالقول – الإشارة بالعين – المراسلة – السفير – طي السر – الإذاعة – الطاعة – المخالفة – العاذل – المساعد من الإخوان – الرقيب – الواشي – الوصل – الهجر – الوفاء – العذر – البين – القنوع – الضنى – السلو – الموت – قبح المعصية – فضل التعفف] ثم خاتمة يبدؤها بعبارة لطيفة

لصاحبه يخبره فيها بانتهاء مصنفه فيقول: " هنا أعزك الله ما تذكرته إيجابا لك، وتقمنا لمسرتك، ووقوفا عند أمرك " (١). ثم يذكر جوانب أخرى من منهجه (٢)، ويلتمس من قارئة ألا يســـئ الظن به وبمصنفه هذا عن الحب (٣).

وللمفكرين آراء تعكس مدى أهمية كتاب " الطوق "، وأهمية ابن حزم، فعنه يقول الإمام ابن قيم في " روضة المحبين ": " أن كلامه في العشق تنماع فيه النفس انمياعًا، وقال عنه الفيلسوف الأسباني الكبير أورتيجا إي جاسيت " هذا الكتاب أروع ما خط عن الحب في الحضارة الإسلامية "(٤)، وقال عنه المؤرخ الأسباني سانتشث البرنس: " طوق الحمامة جوهرة الأدب الأندلسي"(٥)، ومن المعاصرين يقول عنه د/ الطاهر مكي: " كان " طوق الحمامة " أروع كتاب درس الحب في العصر الوسيط في الشرق والغرب في العالمين الإسلامي والمسيحي، تتبع أطواره، وحلل عناصره، وجمع بين الفكرة المفلسفة والواقع التاريخي، وواجه أدق قضاياه في وضوح وصراحة، وكان ابن حزم الدارس الواقعي في كل خطاه، أفكاره محلقة، وقدماه على الأرض ويصدر في نظرته عن تجربة عميقة ذات أبعاد إنسانية واسعة، وعن إدراك ذكي لطبائع البشر وسير الحياة، فجاءت نتائجه صادقة، لمّا تفقد

(١) " طوق الحمامة " لابن حزم ، ص ١٧٩ .

(٢) سيأتي بيانه تحت عنوان " منهج ابن حزم في كتابه " الطوق " من هذا البحث .

(٣) سيأتي بيانه تحت عنوان " موقف ابن حزم من الكلام في الحب الإنساني " من هذا البحث .

(٤) و (٥) " دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامة " ، د/ الطاهر أحمد مكي ص ٢٠٤، ١٦٢.

بريقها ولا توهجـــها، وإنها لتقف الآن في مســـتوى أرقى الدراسات عن الجنس والحب"(١).

وقد طبع هذا الكتاب " لأول مرة بليدن سنة ١٩١٤ مع مقدمة فرنسية للدكتور / بتروف الأستاذ بجامعة بطرسبرج، ثم أعيد طبعه بدمشق سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م مع مقدمة للأستاذ محمد البزم، وظهـــرت منه طبعة حديثة بالقاهرة ســــنة ١٩٥٩م بتحقيـــق الأستاذ/ حسن كامل الصيرفي، وتقديم الأستاذ/ إبراهيم الإبياري، وأعيد نشر هذه الطبعة بالقاهرة سنة ١٩٦٤م- ١٣٨٣هـ " (٢)، وأعيد طبعه بالقاهرة سنة ١٩٧٦ بتحقيق الدكتور/ نصر فريد واصل والدكتور/ محمد فهمي السرجاني والدكتور/ عبد العزيز محمد عزام أساتذة الشريعة والقانون بجامعة الأزهر الشريف.

وقد ترجم كتاب الطوق بلغات عديدة منها: الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية والإسبانية، وانتشر في أنحاء أوروبا مما أعطاه شهرة واسعة، ويعقب المؤرخ الاسباني سانتشث البرنس علي هذه الترجمة بقوله: " وهذه السلسة من الترجمات تؤكد الاهتمام الذى أثارة الكتاب في عصرنا خارج دائرة المستشرقين والعاكفين على الدراسات"(٣)..

وفي عام ١٩٧٧ قدمه للمكتبة العربية محققا الدكتور/ الطاهر مكي

(١) د/ الطاهر أحمد مكي مقدمة تحقيق " طوق الحمامة " ص ٩.

(٢) " ابن حزم الأندلسي " ، د/ زكريا إبراهيم .

(٣) " دراسات عن ابن حزم د/ الطاهر أحمد مكي ، ص ١٣٧ .

" أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة القاهرة ثم قدم له دراسة لاحقة لا تقل جمالا مما أتاح للقارئ العربي الإبحار في هذا الفكر الأندلسي الراقي والوقوف علي هذا النوع من الكتابات.

المبحث الثاني
منهج ابن حزم في كتابه " طوْق الحمامة "

يعتبر كتاب " طوق الحمامة " من أقدم المؤلفات التي شرحت نظرية الحب الإنساني والعلاقة بين الرجل والمرأة، حيث قدم ابن حزم تحليلًا رائعًا لهذه العاطفة بشكل عام وللحياة العاطفية في بلاده " الأندلس " بشكل خاص.

ولقد تناول ابن حزم دراسة موضوع الحب بجرأة غير مسبوقة، وعلي غير عادة الفقهاء، إلا أنه بجانب هذه الجرأة كان عفيفًا ورعًا يمشى بخطى إسلامية يراعي الشرع ويتفق مع لغة الأخلاق " والحق أن ابن حزم حين كتب في الحب فإنه لم ينس أن يتخذ من هذه الدراسة مناسبة للحض علي الفضيلة، والدعوة إلى العفة والمناداة بقبح المعصية، ومن هنا فقد أضاف ابن حزم إلى تحليلاته النفسية العميقة نصائح أخلاقية قيمة توج بها رسالته الجملية في الحب " (١).

وقد ألف ابن حزم كتاب " الطوق " في شبابه وفي سن مبكر، ولعل هذا يفسر الجرأة التي أشرت إليها ليس في التناول فحسب بل في اختياره للموضوع أيضا، فكتابه ملئ بحكايات عن التجارب العاطفية لكثير من الخلفاء المهديين، والأئمة الراشدين، وكذلك لعدد غير قليل من معاصريه ورفاقه. واعتبر ابن حزم نفسه واحدًا من هؤلاء المحبين فجعل من ذاته موضوعًا لدراسته في بعض الأحيان فكما تحدث عن تجاربهم العاطفية

(١) " ابن حزم الأندلسي " ، د/ زكريا إبراهيم ، ص ٢٦٦ .

تحدث عن تجربته الشخصية بصراحة ووضوح، وصراحته هذه جعلته مصداقيًا وقريبًا، ومن ثم يعتبر كتاب " الطوق " انعكاسًا واقعيًا حيًا للحياة العاطفية في الأندلس، كما بدت الدراسة واقعية، موضوعية، ذاتية، ووصفية تاريخية في الوقت نفسه. " فأن يعرض ابن حزم للحب علي ورع منه ونسك، فيعالجه معالجة صريحة حازمة، ويخوض فيه غير كاتم ولا مبق في ذلك السرد الطريف، وعلي هذا النهج القويم وبتلك الفكرة العميقة، والنظرة الدقيقة، لشئ يثير الإعجاب، ويدعو الي التقدير، وكأني بابن حزم حين عاني الحب وذاقه، ووجد مذاقه علي ألسنة من إخوان له، رآه بابًا للحديث وهو العالم الناظر، فسجل فيه رأيه مستمدًا شواهده من حوله، وما أصدقها شواهد "(١). فلم يستند ابن حزم في أحكامه في عرضه لظاهرة الحب إلي آراء نظرية خالصة أو نظريات فلسفية معروفة بل هو يستمد أحكامه من تجاربه وتجارب الآخرين دون التعرض لذكر أسماء أصحابها اللهم إلا من لم يكن هناك ضرر من تسميته "فهو يعتمد علي التحليل النفسي المستمد من الاستقراء وعلى المقدمات التي تنتهي إلى البدهيات الأولى وإذا كان الاستقراء ناقصًا، فإن ابن حزم يدعم ذلك الاستقراء بالنصوص الدينية الصحيحة (٢).

ونستطيع أن نصف منهج ابن حزم بأنه منهج واقعي يحترم الحقيقة، ويعتمد علي الاستقراء بهدف تحليل الظاهرة " وليست نزعة ابن حزم الظاهرية سوى مظهر من مظاهر اعتداده بالواقع، وتمسكه بالنص،

(١) الأستاذ / إبراهيم الإبياري ، مقدمة تحقيق " طوق الحمامة " .

(٢) د/ عبد العزيز محمد عزام ، مقدمة تحقيق " طوق الحمامة " .

ونفوره من تجاوز الظاهر، والحق أن ابن حزم كان يتمتع بعقلية واقعية تحترم الحقيقة، وتزدري الخرافة وتجزع من الإسراف في الخيال فنحن نجده يعتد بأوليات الحس والعقل (١) وفي الوقت الذي راعي فيه ابن حزم المنهج الواقعي وتحليل " ماهو كائن بالفعل " لم يغفل في الوقت ذاته دراسة " ما ينبغي أن يكون " واستطاع أن يضع موضوع الحب في قالب أخلاقي مراعيًا مجموعة الضوابط التي تعتبر معيارًا لما يجب أن يكون عليه السلوك الإنساني بل كان هذا التوجه مقصدًا أساسيًا لأبن حزم بكتابته عن الحب، واستطاع ببراعة أن يمسك بطرفي الموضوع المعياري والواقعي.

ولقد راعى ابن حزم في عرضه لظاهرة الحب الترتيب التصاعدي للظاهرة نفسها والتسلسل المنطقي في العرض بما له من " عقلية منطقية مرتبة، تحسن تقديم المقدمات وإنتاج النتائج، وتنفر من الحشو واللغو والاستطراد، وتعرف كيف تسير في عرض موضوعها بطريقة منهجية منظمة... وحتى حين يكتب ابن حزم عن الحب، فإنه لا يطلق لقلمه العنان، علي نحو ما يفعل الأدباء والشعراء، بل هو يبدأ بشرح طريقته في البحث، وتقسيم موضوعه إلي أبواب، فيحدد لنفسه منذ البداية منهجًا يصطنعه في كل دراسته، ويبين للقارئ في صدر رسالته جوانب الموضوع الذي سيعرض له بالبحث " (٢) فنجده يبدأ حديثه بالكلام عن ماهية الحب ثم ينتقل بعد ذلك إلي الحديث عن نشأته ومن ثم علاماته

---

(١) " ابن حزم الأندلسي " ، د / زكريا إبراهيم ، ص ٩٥ ، وما بعدها ، انظر كذلك : " ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري " د/ عبد الحليم عويس ص ٩٧ .

(٢) " ابن حزم الأندلسي " ، د / زكريا إبراهيم ، ص ٥٧ .

ومظاهره، ويستعرض أنواعه ونماذجه، ثم يتحدث عن أعراضه وصفاته المحمودة والمذمومة ثم يعرج إلى آفاته التي قد تعصف به متدرجًا أيضا في ترتيب هذه الآفات بأنواعها كالهجر والبين والسلو وغيره وصولًا إلي كل ما يعترى الكائن الحي فيذكر الموت الذي هو آفة الآفات والنهاية لكل موجود.

ولعل الحياة المترفة التي عاشها فقيهنا الشاب آنذاك هي التي دعته – في تقديري – إلى هذا النوع من الترف الفكري، وعلى أي حال فإن ابن حزم لم يعمد بكتابته هذه عن الحب سوى تقريرا واقعيا لهذه الظاهرة الإنسانية والمعاناة الوجدانية التي لا تتضح ولا تستبين إلا بالتركيز علي أصولها وعلاماتها وأعراضها وما يقومها من دعائم وما يعتريها من آفات. وهو في ذلك يقول: " وإنما اقتصرت في رسالتي علي الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلًا " (١).

ويختتم ابن حزم دراسته عن الحب ببابين أولهما عن " قبح المعصية " والآخر في " فضل التعفف " مؤكدًا على ضرورة الالتزام بالضوابط الأخلاقية والشرعية، وهنا تتجلى عبقرية الفقيه الواعي حينما يتعرض لموضوع شديد الحساسية كهذا قد يلتبس علي أذهان البعض وجه الحل والحرمة فيه، ولذا فإن أول ما يبادرنا به ابن حزم في بداية الكلام عن ماهية الحب هو الحكم الشرعي لهذه العاطفة فنجده يقول: " الحب أعزك الله – أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا

---

(١) " طوق الحمامة " ابن حزم الأندلسي ص ١٨٠.

بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل " (١).

ويتحدث ابن حزم عن منهجه في بداية "الطوق " فيقول: وسأورد في رسالتي هذه أشعارًا قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها عليّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشمونني القول فيما يعرض لهم علي طرائقهم ومذاهبهم، وكفاني اني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه وناسبه إليّ، والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضى مطيه سواى ولا أتحلى محلى مستعار، والله المستغفر والمستعان لا رب غيره " (٢).

وهكذا نلحظ من عبارات ابن حزم أنه كان حاد التعبير صادق فيما يقول جاد في التزامه، كما نستطيع أن نلحظ منهجًا عريضًا وضعه لنفسه يتمثل في الاستقراء والاستبطان(٣) وأخبار المتقدمين كما نلحظ اعتداده برؤيته الخاصة.

وعلى الرغم من أنه كان غزير التأليف فإننا لا نجد بين مؤلفاته جميعًا كتابًا واحدًا لم يبدأه بتحديد موضوع بحثه، وتعيين خطته في الدراسة، والنص علي الهدف الذي قصد إليه من وراء تأليفه، كما كان دقيقا في عرض أفكاره ملتزما بموضوع حديثه لا يخرج عنه إلا

(١) م.س ص ٦ .

(٢) م.س ص ٣ .

(٣) سيأتي بيانه تحت عنوان "الجانب الاستبطاني " الفصل الثاني من هذا البحث .

للضرورة ربما للتنبيه على أمر ما أو التأكيد عليه وحالتئذ ينبه القارئ معتذرًا له في أدب جم على هذا الخروج ومثالا علي ذلك بعد ذكره لأول مراتب الوفاء يقول: " ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في أخلاق الإنسان وصفاته المطبوعة والتطبع بها، وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع، لزدت في هذا المكان ما يجب أن يوضع في مثله، ولكنا إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط وهذا أمر كان يطول جدًا إذ الكلام فيه يتفنن كثيرًا " (١).

ولا يسعنا بعد هذا العرض لمنهج ابن حزم في " الطوق " سوى الإشادة بهذا التحليل النفساني الدقيق لأسباب الحب وأعراضه وآفاته...، وذلك العرض الفلسفي العميق لصلات المحبين بالمحبوبين مع ما يكتنفها من علامات متشابكة متعارضة متداخلة... الخ، وعلى الرغم من أن ابن حزم ليس أول من كتب في الحب من أدباء العرب فقد سبقه إلى ذلك إخوان الصفا في بعض رسائلهم، وابن المقفع في "الأدب الكبير والأدب الصغير "، والجاحظ في الرسالة السابعة من مجموعة رسائله في " العشق والنساء " إلا أن ابن حزم قد فاق كل هؤلاء في دقة منهجه، وتسلسل أفكاره، وترابط بحثه، ورقة حسه، وبعد غوصه، وقد اتبع ابن حزم في دراسته للحب منهجي الاستبطان والاستقراء، فجاءت رسالته حافلة بالملاحظات النفسية الدقيقة، والخبرات الحية المعاشة والأمثلة التاريخية الصادقة، والنماذج البشرية المتنوعة، وهذا ما جعل منها دراسة فذة في تاريخ الأدب العربي " (٢).

---

(١) " طوق الحمامة" ابن حزم الأندلس، باب "الوفاء" ص ٩٣ .

(٢) " مشكلة الحب " د/ زكريا إبراهيم ص ٢٨٠ ، وله أيضًا " ابن حزم الأندلسي " ص ٢٥٧ .

المبحث الثالث

أسلوب ابن حزم في كتابه " طوْق الحمامة "

لقد تحدث ابن حزم عن الحب بأكثر من لغة: دينية، فلسفية، نفسية، أخلاقية، إنسانية، اجتماعية، شعرية.

وتناول أكثر من جانب: الديني، الفلسفي... الخ، وبذلك تعددت الأساليب، ويرجع هذا التعدد في اللغة، والجوانب، والأساليب؛ لطبيعة الموضوع ذاته، وكل ذلك كان طبعًا مقدورًا لابن حزم، فلقد راعي في كتابه " طوق الحمامة " كل هذه الأساليب: الوعظي الديني، والنصحي الأخلاقي لما ينبغي أن يكون عليه سلوك الناس، والتحليلي الفلسفي لظاهرة الحب باحثًا عن ماهيته وعلله وأسبابه... الخ، والتحليلي النفساني الدقيق لأحوال المحبين بالإضافة إلى أسلوبه الأدبي الراقي المتمثل في شعره الأصيل، ونثره الرائع، وتصويراته الفنية البديعة ولا ننسى بجانب كل ذلك ثقته في عرض موضوعه، وهو يحكي في إنسانية شفافة ما كان عليه مجتمع بأكمله، أعنى المجتمع الأندلسي آنذاك.

وعلى الرغم من موسوعية كتاب " الطوق " إلا أنه يغلب عليه الطابع الأدبي بدءًا من هذه الكناية الشيقة في جملة " طوق الحمامة " لتزداد تشوقًا أكثر بإضافتها لجملة " في الألفة والألاف " وكأن ابن حزم يضع عنوانًا لقصيدة شعرية لا لرسالة أو كتاب.

ولقد صاغ ابن حزم كتاب " الطوق " بلهجة شديدة الرومانسية تستطيع أن تلحظها من أول وهلة ومن روعة مطابقة العنوان لموضوع الكتاب، ومدى ملائمته لمضمونه، حيث تجد به دلالات نفسية وحسية

وعاطفية وقبل كل شئ معاني غزلية، فالحمام (١) طائر عاطفي مشهور بإجادته لفن الغزل، ولوف، وفي، يغار علي أنثاه، ويشاركها رعاية صغاره.

ولقد اختار ابن حزم نموذجًا من الطبيعة يتسم بالرقة والحنان تتجلى فيه مظاهر الحب واضحة، واختار أنثى الحمام كناية عن المرأة التي هي ذات المحبوب موضوع كتابه.

والطوق حلقة سوداء طبيعية تلتف حول عنق الحمامة في مظهر رائع من مظاهر الزينة وكأنه عقد أراد به ابن حزم عنق المرأة، فكما أن العقد يزين عنق المرأة، كذلك يزين الطوق عنق الحمامة، وخص العنق، لأنه من مفاتن المرأة، وقد يراد بالطوق " القيد " لأن الحب أغلال وقيود بين المحبين فيما بينهم نظرًا لما قطعوه علي أنفسهم من عهود أشبه بالقيد، وكأن ابن حزم يلمح بهذا العنوان إلي حقيقة نفسية وهي ضرورة العاطفة في حياة المرأة، فكما أن الحمام ولوف، غيور، وفي، متعاون، ماهر في حواره العاطفي مع أنثاه فكذلك يجب أن تكون معاملة المرأة ممزوجة بشئ من اللطف والحنان، أو ما يسمى بلغة الشرع " المودة والرحمة " فما أبلغ تعبير بن حزم حين قال: " إنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقضت، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت " (٢). فالمعنى الذي ينطوي عليه العنوان يدل علي شخصية عبقرية تجيد استخدام الألفاظ

(١) " ومن كرم الحمام الإلف والأنس والنزاع والشوق ، وذلك يدل علي ثبات العهد ، وحفظ ما ينبغي أن يحفظ ، وصون ما ينبغي أن يصان ، وإنه لخلق صدق في بنى آدم فكيف إذا كان ذلك الخلق في بعض الطير " . (" الحيوان " ، أبو عثمان الجاحظ) ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) " طوق الحمامة " ص ١٣٣ .

وتطويعها لخدمة المعنى وفي عبارة صريحة موجزة، ولا يصدر إلا عن شاعر ملهم مرهف الحس، وأديب ذكي متمرس في فنون الأدب.

أما جملة " الألفة (١) والألاف " التي عبر بها ابن حزم بخلاف " العشق " الذي عبر به الفلاسفة الذين كتبوا في الحب كإخوان الصفا في رسالتهم عن " ماهية العشق "، وابن سينا في رسالته التي تحمل نفس العنوان (ماهية العشق)، والفرق بين التعبيرين – ابن حزم والفلاسفة – دقيق، وفيه تتباين نظره كل منهما للحب من حيث تخصيص نوع الحب الذي سوف يتحدث عنه كل منهم، ومن حيث أبعاده: البعد الحسي للحب، البعد الصوفي والفلسفي، البعد الإنساني والنفسي.

فأسلوب الحكماء تصـــدرت به عناوين رسائلهم بألفاظ تتســـم بالطابـــع الفلسفي كلفظ " الماهية "، وكذلك الطابع الصوفي المتمثل في " العشق " و" العشق " (٢) لفظ استخدمه الحكماء والمتصوفة، ولم يرد بالقرآن الكريم، وحديث كلاهما عن الحب – الحكماء والمتصوفة – يفضي إلي فناء العاشق بالمعشوق والاتحاد به، هكذا انتهى إخوان الصفا في حديثهم عن الحب من "أن الغرض الأقصى من وجود العشق في جبلة

---

(١) جاء بلسان العرب :" أَلِفْتُ الشئ و أَلِفْتُ فلاناً إذا أنست به ، وأَلفت بينهم تأليفاً إذا جمعت بينهم بعد تفرق ، وألفت الشئ تأليفاً إذا وصلت بعضه ببعض ... والإيلاف : العهد والذمام" (لسان العرب ، ابن منظور) جٍ٢ ص ١٠٨ .

(٢) العشق : " فرط المحبة ، وقيل هو عُجْب المحب بالمحبوب ، يكون في عفاف الحب ودعارته ، وقيل التعشق تكلف العشق ، والعَشَق : اللزوم للشئ لا يفارقه ، ولذلك قيل للكلف : عاشق للزومه هواه ، وسئل أبو العباس أحمد بن يحيي عن الحب والعشق : أيهما أحمد ؟ قال : الحب ؛ لأن العشق فيه إفراط وسمى العاشق عاشقاً لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة إذا قطعت ، والعشقة شجرة تخضر ثم تدق وتصفر " . (" لسان العرب " جـ ٣٣ ص ٢٩٥٨) .

النفوس هو الارتقاء من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسانية المعقولة" (١) كما انتهى ابن سينا أيضا إلي أن " للحب البشري أي لعشق القوي الحيوانية دورًا إيجابيًا يسهم به في توجه النفس نحو الحب الإلهي والاتحاد مع الله " (٢)، كما أن دراسة ابن سينا في الحب كانت تهدف بشكل ما إلى " تقديم الأسس النظرية التي تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية " (٣).

أما المتصوفة فإن العشق الإلهي هو المحور الأساسي والأصيل في فلسفتهم كما أن الفناء الذي هو المنتهى من العشق، هو الغاية القصوى التي يسعى إليها الصوفية.

أما ابن حزم فقد دعته ظاهريته وواقعيته إلى نبذ التصوف فالحب عنده خبرة حياتية ليس الغرض منها الاتحاد بالله، فالألفة التي عبرها بها – غير أنها لفظ قرآني – هي أكثر استيعابا لمعاني الحب لأنها لا تكون بين الإنسان وغيره من الناس فقط بل بين الإنسان وغيره من الأشياء أي كل ما يألفه الإنسان، فعنوان ابن حزم يدل دلالة صارخة على أن الحب الذي يريد التحدث عنه هو الحب الإنساني.

أمـــــا **أولًا:** فهو المفهوم من الكناية التي أشرت إليها منذ قليل.

ثانيا: لفظ " الألفة " تعبير إنساني لا يتفق مع الذات الإلهية لأننا نقول: عشقت الله، ولا نقول ألفت الله.

ثالثا: التعبير بلفظ " الألاف " وهم جماعة المحبين معطـــوفًا علي

(١) رسالة إخوان الصفا " في ماهية العشق " ص ٢٨٢ باختصار وتصرف .

(٢) راجع رسالة ابن سينا " في ماهية العشق " .

(٣) "دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة " ، د/ الطاهر مكي ص ٢٩٣ .

" الألفة " ببراعة وإيجاز، وهو لفظ يتوهج دفئًا وإنسانية، وفي صورة حسية حية وأكثر مصداقية دليل علي واقعية المتحدث، وواقعية المتحدث عنهم أيضًا وهم البشر أو الناس فدلنا بذلك علي جانبين هامين في رسالته عن الحب وهما: الحب علي الإطلاق المتمثل في "الألفة "، ثم الحب الحسي بين الناس أنفسهم المتمثل في كلمة " الألاف"، وبهذا العنوان ينوه ابن حزم منذ البداية أن حديثه عن الحب يشمل جانبيه: الميتافيزيقي المطلق، والواقعي الحسي المقيد، وينأى تمامًا عن اللغة الصوفية في الحب.

ونستطيع أن نصف أسلوب ابن حزم بأنه " المفكر الدقيق العميق الذي يجعل من اللغة آداه طيعة للتعبير عن أفكاره ومعانية، دون لغو أو حشو، ودون استطراد أو خروج عن الموضوع، وقد استطاع ابن حزم أن يعبر عن أدق خلجات النفس، وأرق أحاسيس الشعور، بلغة أنيقة رشيقة، فكان الأديب الشاعر الذي يصف للناس خبراته المعاشة، دون تكلف أو افتعال، وينقل إليهم عواطفه ومشاعره دون مبالغة أو إغراق في الخيال " (١).

(١) " ابن حزم الأندلسي " سلسلة أعلام العرب ، د/ زكريا إبراهيم ص ٧٦ .

المبحث الرابع
موقف ابن حزم من الكلام في الحب الإنساني

لقد استفاض مفكرو الإسلام في الكلام عن " الحب الصوفى " أو العشق الإلهي " وتركوا لنا تراثا عظيما لما ينبغي أن يقال فيه وما لا ينبغي في الوقت الذي بدا فيه هؤلاء المفكرون يتحرجون من الكلام في " الحب الإنساني " فكانوا يتحدثون عنه كالتي تمشي على استحياء، يعتذرون كثيرًا، ويبررون كتاباتهم في الحب كأنما نطقوا بكلمة الكفر، فإن يعتذروا عنه من ناحية ويتحدثوا عنه من ناحية أخرى ألم يعد هذا من التناقض ؟! وإلا فما مرادهم إذن من هذه الكتابات ؟

ربما أدرك البعض منهم قصورهم هذا ومدى إفادتهم إذا تناولوا هذا الموضوع وخاصة أن المفكرين المسلمين لم تذخر مؤلفاتهم بالكلام عن الحب الإنساني مثل ما للأدباء مثلا الذين لا يعمدون في واقع الأمر إلى إقامة أسس فلسفية أو نظرية للحب، والتي تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية – وهو ما أضطلع بدراسته الفلاسفة والمتكلمون – بل يقصدون الحب للحب ذاته والتغني بذات المحبوب فقط أما المتكلمون والفلاسفة فقد اختلفت لغتهم في الحديث عن الحب فتطرقت للحديث عن تفسير ماهية هذه العاطفة وتحليلها باعتبارها أعمق تجربة ميتافيزيقية عرفها الإنسان.

وابن حزم واحد من هؤلاء المتحرجون المعتذرون، وكان في بادئ أمره يبدو متشددًا، ولكنه كعادته كان صادقًا مع نفسه منذ البداية فأبان عن موقفه وكيف أنه ألف كتابه " طوق الحمامة " بدعوى من صديق صباه فيقول في صدر كتابه ردًا علي طلب صديقة: " وكلفتني أعزك الله

أن أصنف لك رسالة في صفة الحب، ومعانية، وأسبابه، وأعراضه، وما يقع فيه وله علي سبيل الحقيقة، لا متزيدًا ولا مفننًا، لكن موردًا لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره، فبدرت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فهذا من الفقر، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غدًا " (١).

وعلى الرغم من مبلغ تحرج الإمام، إلا أنني لا أراه متناقضًا مع نفسه حيث قدم لنا آثارًا عن سلفنا الصالح قد ترقى بنا إلى حد الإقناع بضرورة الترويح عن النفس، واعتبر هذه الآثار بمثابة الاعتذار عن كتابته في الحب، واعتبر الكلام في الحب نوعًا من هذا الترويح. ومنهج ابن حزم كعادته في معظم معالجاته يعمد الي " تأييد أحكام العقل ببعض النصوص الدينية، وتزكية القضايا العقلية والتجريبية ببعض نصوص القرآن " (٢). هذا منهجه بوجه عام فإن قيل أنه استند هنا على الأثر، والأثر كما نعلم لا يرقي لقوة النص الشرعي في إثبات الأحكام نقول: أن ابن حزم لا يتحدث هنا عن أحكام هامة في الدين حتى يفتقر الي النص الديني بل عن قبول أو عدم قبول الكتابة في أمر ما كموضوعنا هذا فلا بأس أن يأنس إليه ابن حزم ليصبح الأمر مقبولا فالصحابة هم الذين قال عنهم الرسول (صلي الله عليه وسلم): " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ". ويذكر ابن حزم قول أبي الدرداء: " أجموا النفوس بشئ من

(١) " طوق الحمامة " ص ٢ .

(٢) " أعلام العرب – ابن حزم الأندلسي " ، د/ زكريا إبراهيم ص ٧٥.

الباطل ليكون عونًا لها علي الحق، ومن أقوال الصالحين من السلف المرضي: من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقوى وفي بعض الأثر: أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد " (١).

ويختتم ابن حزم رسالته في الحب وهو هادئ النفس نقى السريرة لا يعبأ بقول القائلين بعبارة تفصح عن موقفه الذي أتفق معه فيه:" وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصبين تأليفي لمثل هذا ويقول إنه خالف طريقته وتجافي عن وجهته، وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته، قال الله (٢) عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ...** ﴾ " (٣).

وهذا الموقف يتشابه إلى حد كبير مع موقف الجاحظ، أبو عمر عثمان (١٥٠-٢٥٥) في رسالته " في العشق والنساء "، وهي " فيما يبدو مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضيًا عنه كل الرضى، أو لعله رأي فيه ما يثير مشاعر المحافظين" (٤)، فالجاحظ في صدر رسالته يقدم اعتذارًا للقارئ عن ذكر العشق المعروف بالصبابة، والمخالفة علي قوة العزيمة محاولا التصدي لمن حاول الطعن علي هذا الكتاب، أو سخّف رأيه الذي دعاه إلي تأليفه والإشادة بذكره (٥). ويختتم رسالته بالمبررات التى دعته إلى هذا التأليف " وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن

---

(١) " طوق الحمامة " ص ٣ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم (١٢) .

(٣) " طوق الحمامة " ص ١٨٠ .

(٤) " دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة " د/ الطاهر أحمد مكي ص ٢٧١ .

(٥) " رسالة في العشق والنساء " أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . ص ١٣٩ بتصرف .

يحمل أصحابها علي الجد الصرف وعلي العقل المحض... ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحا ببعض الهزل وعلى أن الكتاب إذا كثر هزله سخف، كما أنه إذا كثر جده ثقل، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ وينفي النعاس عن المستمع"(١)، فالجاحظ وابن حزم وإن كانا قد اتفقا علي مبدأ الاعتذار إلا أن تبريراتهما لا تنهض علي أساس مرجعي واحد فابن حزم كما رأيناه يركن لنصوص دينية مدعمًا آرائه بأقوال السلف الصالح، أما الجاحظ فإن أسبابه نظرية ترجع إلى حاجة المتلقي العقلية والنفسية في عدم قبول ما يثقله ذهنيًا إذا كثر الجد في العلوم، وحاجته لبعض الهزل الذي قد يساعده علي التنبيه والاستحضار لعقله وسمعه، وتلك طبيعة البشر.

أما ابن قيم الجوزية (٢) (٦٩١-٧٥١هـ) فإنه حين تحدث عن الحب كان يصدر عن رؤية دينية خالصة تمتزج نوعا ما ببعض العمليات المنطقة كتقسيمة بين أنواع الهوى من ناحية، ووضع العقل في مقابلة الهوى دون تجاهل منه لاحدهما من ناحية أخرى ثم بنى علي هذا التقسيم وهذا التقابل موضوع كتابه عن الحب، فابن القيم حين ينبه علي ضرورة سلطان العقل لئلا يصير أسيرًا للهوى – مادام العبد لاينفك عنه مادام حيًا – يفرق في الوقت ذاته بين ماكان هوى محمودًا يؤدي إلى الأمن والسلامة، وهوى مذمومًا يؤدي للهلاك شريطة أن تكون السيادة بينهما لدولة العقل، ومثال ذلك: أن الله سبحانه وتعالي لم يأمر بصرف الهوى

(١) م.س. ص ١٥٣.

(٢) انظر : " روضة المحبين ونزهة المشتاقين " لابن قيم الجوزية ص ١٥ ومابعدها. .

عن النساء جملة بل أمر بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ماطاب منهن، وكأن يحرم على الناس سماع آلات اللهو ويعوضهم عنها بسماع القرآن، إلى غير ذلك من الأمثلة. ويؤكد ابن القيم أن من تأمل ذلك هان عليه ترك الهوى المردى واعتاض عنه بالنافع المجدى، ولذلك يقر ابن القيم في مقدمة كتابه " روضة المحبين " أنه ما تحدث عن الحب إلا محاولة منه لعقد الصلح بين العقل والهوى حتى يسهل على العبد محاربة النفس والشيطان، وأنه ماألف كتابه هذا إلا ليكون عونا علي الدين والدنيا، ولذلك لم يأل جهدًا في الاعتذار عن ذكر الحب مبررًا أن " هذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس وأن فيه ما يكون ممتعا لقاريه مروحًا للناظر فيه فإن شاء أو سعه جدا وأعطاه ترغيبا وترهيبا وإن شاء أخذ من هزله وملحه نصيبا فتارة يضحكه وتارة يبكيه، وطورًا يبعده عن أسباب اللذة الفانية وطورًا يرغبه فيها ويدنيه " (١).

وابن قيم الجوزية لم يكن أول من تكلم في الحب برؤية دينية خالصة بل سبقه إليها ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن القرشي (٥٨٠-٥٩٧هـ) في كتابه " ذم الهوى"، فكلاهما امتزجت دراستهما في الحب بالأدلة الدينية والتي شملت معظم المسائل التي تعرضا لها، وكان السمت الوعظي الارشادي وما يصحبه من نهى وتحذير، وترغيب، وترهيب هو الغالب علي مادة كليهما أكثر من السمت الفلسفى أو النفساني كما هو الغالب علي دراسة ابن حزم. وابن الجوزي لم يكن يتوجه إليه اللوم وهو يسلك هذا المسلك الديني في معالجته لقضية الحب،

(١) م.س، ص ١٩ .

ولذا كان في غنى عن رفع الحرج عن نفسه أو تكلف عناء الاعتذار وهو ما فطن إليه ابن القيم بعده بمائة عام تقريبًا.

و " ذم الهوى " عنوان أراد به المؤلف التأكيد منذ البداية علي خروجه عن مواطن الشبهات وإن كنت أري فيه نوعًا من التكلف، فليس كل هوى مذمومًا بل هناك ما كان محمودًا أيضا، وابن الجوزي يقرر ذلك بنفسه " فلا يصلح ذم الهوى علي الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد علي طلب المصالح ودفع المضار " (١) وأنه لما رأي أن الغالب في طباع الناس أنها لا تقف عند حد المنفعة فيما تهواه بل تزيد علي ذلك وتتعداه، وسم كتابه بـــ " ذم الهوى "، ولذا كان تخصيص المراد بعد ورود العنوان على الإطلاق يعد عيبا آخر لأنه لولا إيضاحه لما فهم تحديدًا المراد من العنوان، والأولي ألا يحتاج العنوان إلى تفسير، وأن يكون ملمًا بمضمون الكتاب دون زيادة فيه أو نقصان. نفهم من ذلك أن الإفراط عند ابن الجوزي هو معيار الذم ولكن دون تحديد منه إذا كان هذا الإفراط في هوى محمود أو مذموم ودون توضيح الفرق بينهما، وهذا معناه أن عدم الإفراط في الهوى المذموم مباح طالما أن المعول عليه ما زاد علي جلب المصالح ودفع المضار، لأن هناك هوى يجلب النفع ويدفع الضار مع أنه مذموم إلا أن الضوابط الشرعية والخلقية هي وحدها التي تثنينا عنه، وابن الجوزي لم يقصد ذلك المعنى دون ما شك ولهذا فإن تقسيم ابن القيم لأنواع الهوى قبل الشروع في مباحث الكتاب كان أدقًا وموقفه حيال موضوعه كان واضحًا وأكثر ثقة من ابن الجوزي

(١) " ذم الهوى " أبو الفرج ابن الجوزي ص ١٨ .

علي الرغم من أن " ذم الهوى " يعتبر " أضخم كتاب ألف في هذا المجال" (١).

وموقف ابن الجوزي من الكلام في الحب يبدو واضحًا للوهلة الأولى من عبارته " ذم الهوى "، وخاصة أن " الهوى " لم يرد في موضع من القرآن الكريم إلا وكان مذمومًا، ويزداد موقفه وضوحًا عندما يبرر في مطلع كتابه أنه ما جمع هذا الكتاب إلا نزولًا عن رغبة أحد الأشخاص ممن ابتلى بالهوى وأراد منه أن يصف له دواءًا لدائه، ولكي يدفع عن نفسه الشبهات فيما يكتب يقول: " وأعلم أنى قد نزلت لأجلك في هذا الكتاب عن يفاع الوقار إلي حضيض الترخص فيما أورد، اجتذابًا لسلامتك، واجتلابًا لعافيتك " (٢). وعبارة ابن الجوزي رغم ما بها من تحفظ واضح إلا أني أراه متناقضًا مع نفسه؛ لأنه حينما أراد أن يعقد كتابًا عن الحب استعار له عنوانًا يدل علي درجة معينة من درجات الحب وهو " الهوى " بوجه خاص، وعقد لذلك أربعة وثلاثين بابًا من كتابه وهي أقرب للأحكام الشرعية من ذكر مجاهدة النفس ومدح الصبر، ومن وجوب غض البصر، وتحريم الخلوة والزنا، ووسمها بالذم – وهذا حق – ثم عقد أبوابًا أخرى لذكر العشق وحقيقته ومراتبه... الخ بدءًا من الباب الخامس والثلاثين وحتى نهاية الكتاب.

و" الهوى " وأحكامه غير " العشق " وأحكامه أي أنه التزم منهجًا فقهيًا يتعلق بالحلال والحرام في بادئ أمره، ثم راح يتحدث عن مجنون

(١) " دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة " د/ الطاهر أحمد مكي ص ٣٢٣ .

(٢) " ذم الهوى " أبو الفرج ابن الجوزي ص ٧ .

ليلى والهلاك من أجل المحبوب فيما تبقى له من أبواب، فعبارة " ذم الهوى " إذن ماهي إلا وسيلة لتبرئة ساحته عن ذكر العشق والعشاق الذي استفاض بالحديث عنهم في ستة عشر بابًا، فإن كان ذكرهم مباحًا لا لغو فيه فما معنى عبارته " وأعلم أني قد نزلت لأجلك فى هذا الكتاب من يفاع الوقار إلى حضيض الترخص "، وإن لم يكن مباحًا فما معنى قوله: " اجتذابًا لسلامتك واجتلابا لعافيتك " فإن ما فيه السلامة لا يهوى بصاحبه إلي حضيض الترخص، وإن كان يقصد بهذه العبارة " الهوى المذموم " فإن ذكره للأحكام الشرعية الموجبة لذم الهوى لا تخرجه عن وقاره ولا تنزلق به إلى حضيض الترخص.

كما أنه بعد ذكره لماهية العشق وحقيقته ومراتبه وأسبابه أي الأمور التي بطبيعتها لا تستوجب مدحًا ولا ذمًا عقد بابًا خاصًا بعد ذلك " لذم العشق "، والعشق من الأمور الخارجة عن إرادة الإنسان، والاحكام الشرعية إنما تتوجه للفعل الإرادي فقط كأن يكتم العاشق أولا يكتم، ويلتزم العفة أولا يلتزم فالحكم إنما ينصب على سلوكه تجاه عشقه لا على ابتلاءه، بالعشق ابتداءًا، وكيف يذم العشق والبعض يجده طريقًا لتنبيه النفوس من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، ورياضة لها وتعريج بها وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة الي الأمور النفسانية المعقولة " (١)، كما أن للحب البشري كما يري ابن سينا " دورًا إيجابيًا يسهم به في توجه النفس نحو الحب الإلهى والاتحاد مع الله " (٢).

(١) انظر : " رسالة في ماهية العشق " إخوان الصفا ص ٢٨٢ .

(٢) راجع : " رسالة في ماهية العشق " لابن سينا

ومن أئمة المذهب الظاهري الذين أثروا في ابن حزم، أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني الشهير بابن داوود الظاهري (٢٥٥ – ٢٩٧هـ) فقد كان له قول يراه قولا فصلًا في هذه المسالة لكي لا ينكر عليه أحد كتابته في الحب " ونحن لو شئنا أن نذكر من كتاب الله جل وعز، ومن أخبار المتقدمين من أنبيائه وأيضًا نخبر من أوليائه ما يسهل سبل الهوى علي من أنكرها، ويقربها من فهم من لم ير أثرها من حيث لا يستوجب به من عاقل إنكار، ولا يلحق بأحد من الأئمة فيه عار، لرجونا بإذن الله أن لا نقتصر عن ذلك غير أن هذا الأمر ليس من أمور الديانـــات التى لا تثبت إلا بالاحتجاجـــات، وإنما هو شئ يختـــص به قوم برقة طبائعـــهم وتآلف أرواحهم، فمن كان مثلهم فهو يعذرهم، ومن خرج عن حدهم هان قوله " (١).

ونلحظ فيما عرضنا له أن الفلاسفة ممن كتبوا في الحب كإخوان الصفا وابن سينا لم يتحرجوا من الكلام في العشق وذكر أحكامه ربما لأن رؤيتهم له تسامت به عن عالم الحس إلي عالم المعقول، علي عكس الفقهاء والمتكلمين ممن كتبوا فيه، ويبدوا أن اشتغالهم بالمسائل الدينية تشريعا واعتقادًا جعلهم يتحرجون من كتاباتهم في الحب سوي من اتسم منهم بالصراحة والثقة والجرأة كابن داود وابن حزم وابن قيم الجوزية.

(١) " الزهرة " لابن داوود الظاهري جـ١ ص ٤١.

تمهيد:

لقد شغل موضوع الحب الإنساني، وتناوله بالدراسة والتحليل كثير من الفلاسفة والمتكلمين والشعراء والأدباء والفقهاء، وعلماء الأخلاق والاجتماع والمعنيين بالدراسات السيكلوجية وغيرهم، وعلي الرغم من أن ابن حزم لم يكن أول من كتب (١) في الحب من المفكرين والأدباء الإسلاميين من العرب وغيرهم، وعلي الرغم من كون " طوق الحمامة " من أول مصنفاته إلا أنه قد فاق من سبقوه ولا أبالغ لو قلت ومن تبعوه ممن كتبوا في الحب من المسلمين، وهذا يرجع لموسوعية فكر ابن حزم

(١) **مؤلفات في الحب سبقت " طوق الحمامة "** منها : (١) رسالة في العشق والنساء لأبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ -٢٥٥ هـ) ، وهو فيما أعلم أول مؤلف عربي كتب عن الحب الإنساني . (٢) " رسالة في العشق " لابي يوسف يعقوب ابن اسحق الكندي (١٨٥ – ٢٥٢هـ) لم يصلنا شئ منها . (٣) كتاب " الزهرة " لأبي بكر محمد بن داود الظاهري (٨٦٨ – ٩١٠م) . (٤) كتاب " الحدائق " لابن فرج الحياني (٣٦٦ – ٩٧٦) فُقد ، (٥) كتاب " الموشي " لأحمد بن اسحاق الوشاء أبو الطيب (٢٤٦ – ٣٢٥هـ) . (٦) " رسالة في العشق " لأبي العباس بن المعتز (٨٦١ – ٩٠٨م) مخطوطة في مكتبة طشقند في الاتحاد السوفيتي. (٧) " الرسالة السابعة والثلاثين " لإخوان الصفا " "العشق ومحبة النفوس". (٨) " رسالة في العشق " لابن سيناء (الشيخ الرئيس) (٩٨٠ – ١٠٣٧م) ويأتي ابن سيناء بعد هؤلاء وقبل ابن حزم .

ومؤلفات لحقت "طوق الحمامة " وتأثرت به : (١) كتاب " منية المحبين وبغية العاشقين " للشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي (١٠٧٨-١٦٦٧م) وكان مفتياً في نابلس وعلي مذهب ابن تيمية ، (٢) "مصارع العشاق" لأبي محمد جعفر بن أحمد السراج (٥٠٠ هـ - ١١٠٧م) ، (٣) كتاب " ذم الهوى " لأبي الفرج عبد الرحمن الشهير بابن الجوزي (٥٨٠ - ٥٩٧هـ) ، (٤) كتاب " روضة المحبين ونزهة المشتاقين " للامام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ - ١٣٥٠م) ، (٥) " ديوان الصبابة " أبن أبي حجلة التلمساني وكان معاصراً لابن قيم وعلي مذهبه (راجع : "دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامة ") للدكتور/ الطاهر أحمد مكي من ص ٢٦٧-٣٣٨) .

إضافة إلي طبيعة الموضوع، فإن الحب باعتباره موضوع يغوص في أعماق النفس البشرية من ناحية، متعدد الجوانب من ناحية أخري لابد أن تتوافر له من الأدوات والملكات ما يستطيع معها الباحث فيه أن يعالجه معالجة صحيحة لسد كل جوانبه الوشيجة: دينية، أخلاقية، فلسفية، نفسية، اجتماعية...الخ.

وقد توفر كل ذلك في دراسة ابن حزم في كتابه " الطوق " فإنه مقارنة بمن سبقوه ممن كتبوا في هذا الشأن نجد منهم الأديب المتكلم فقط كالجاحظ مثلا، أو الفقيه الشاعر فقط كأبو داوود الظاهري، أو الفيلسوف فقط كإخوان الصفا والكندي وابن سينا، وإن كان لابن سينا أراجيز في بعض الفنون إلا أنها لا ترقي لمستوى القصائد الشعرية التي توافرت لابن حزم الأديب " فشخصية ابن حزم تبدو في قمة توهجها في" طوق الحمامة " وفيه يلتقي الشاعر وعالم النفس ليرسما لوحة جميلة للحياة العاطفية علي أيامه(١) " ليس هذا فحسب بل يلتقي الأديب والفيلسوف أيضا فهما يصدران عن منبع واحد أعنى الرؤية الذاتية، فالحب حينما يتحدث عنه الفيلسوف الشاعر والشاعر الفيلسوف بخلاف ما أن يتحدث عنه أحدهما فقط ففي هذه الدراسة تلتقى الرؤى في شخص فقيه الأندلس العظيم الأديب الشاعر والفيلسوف المتكلم.

والحب مفهوم ميتافيزيقي – ما في ذلك ريب – فإن كان مادة للبحث فالأولى به أن يصير أطروحة فلسفية لأنه واحدٌ من أهم موضوعات الفلسفة " إذ ليس في استطاعة كل هذه اللغات (من شعرية،

---

(١) م.س. ص ١٤٤ .

وأخلاقية، وبيولوجية، وإجتماعية ، وتصوفية) تفسير ماهية الحب وأنه لا بد للفلسفة وحدها من أن تأخذ علي عاتقها دراسة الحب بوصفة ظاهرة إنسانية متكاملة"(١) ويكون الفيلسوف حينئذ أجدر الباحثين بتحليل هذه الظاهرة والكشف عن ماهيتها. وإذا كان الأمر كذلك فالجانب الفلسفي هو أكثر الجوانب أهمية في هذه الدراسة (٢) نظرا لطبيعة الموضوع ويليه في الأهمية من حيث دراسته بقية الجوانب.

وفي الصفحات التالية سنتعرف علي هذه الجوانب التي شملها كتاب " الطوق " والتي تعتبر مجالا خصبا للدارسين ، فكل جانب منها يختص بعلم من العلوم وتجدر دراسته كل على حده، إلا أننى سأتحدث فقط حول ماكان له علاقة مباشرة بموضوع البحث أما بقية الجوانب فسوف أذكرها علي عجل وذكرها هنا فقط حتى تكتمل الفائدة من إبراز جوانب " الطوق " عامة، والفلسفي والأخلاقي والديني منها علي وجه الخصوص، وسأبدأ بما انتهى إليه ابن حزم أي بالجانب الديني وإنما أردت ذلك حتى لا أتحمل مؤنه الدفاع عنه طيلة البحث فالنفوس تغيرت والفهم أصبح مغلوطًا ومخلوطاُ، والأفهام قصرت وسوء النية زاد.

---

(١) " مشكلة الحب " د/ زكريا إبراهيم ص ٩ .

(٢) كما سيأتي بيانه في الفصل الثالث من هذا البحث .

المبحث الأول

الجـــــــانب الدينـــــــــي

ربما كان موقف ابن حزم من الكلام في الحب ممهدًا لفهم طريقته، والمنهج الذي اتبعه في معالجته لقضية الحب الإنساني، وخاصة بعد أن التمس من معارضيه عدم إساءة الفهم والظن في غير مقصده، وكيف أنه اقتصر في رسالته " علي الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلًا "(١) ، ونظرًا لرؤيته الواقعية للأمور من ناحية، وأولوية الفلسفة بالبحث في موضوع الحب من ناحية أخرى، وما تقتضيه الضرورة المنطقية من تقديم ماهية الشئ قبل تقديم ما يترتب عليه من أحكام، ولما كان الحكم علي الشئ فرعًا لتصوره، كل ذلك حدا بابن حزم (الفيلسوف، المنطقي، الفقيه) أن يشرع في تحليل ظاهرة الحب أولًا ثم الإتيان بالحكم الشرعي والأخلاقي بعد ذلك، ولذا أفرد ابن حزم في نهاية كتابه " الطوق " بابين أولهما: في " قبح المعصية " والآخر في " فضل التعفف " ثم عقب على إيراده لهذين البابين بقوله: " ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض علي طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه مفترض علي كل مؤمن " (٢).

وتخصيص هذين البابين لبيان الحكم الشرعي في قضية الحب لم يمنع ابن حزم في الوقت ذاته من ذكر الأدلة الدينية في بعض المناسبات

(١) " طوق الحمامة " ص ١٨٠ .

(٢) " م. س. ص ٥ .

أثناء سرده وتحليله لظاهرة الحب، ولذا فإن أول ما يبادرنا به ابن حزم الفقيه بعد ذكر ماهية الحب هو بيان حكم الشرع فيه فيقول: " الحب – أعزك الله – أوله هزل وآخره جد. دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل "(١).

ففي هذا التعريف عدة جوانب: الجانب الفلسفي متمثلا في البحث عن الحقيقة، والجانب الديني متمثلا في ذكر حكم الشرع، والجانب النفسي الاستبطاني متمثلا في معاناة الفرد وكونها طريقًا لإدراك حقيقة الحب من خلال التجربة الحية للفرد نفسه.

وكلام ابن حزم فيه إشارة لصعوبة تعريف الحب ولكنه بعد استقصاء ما قيل في ماهيته يذهب إلي أنه " إتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع "(٢)، وعلي الرغم من توفر ملامح التأثر بالفلسفة اليونانية في هذا التعريف إلا أن ابن حزم يقدم لنا أصولًا شرعية يركن إليها في تعريفه ويفسر هذا التعريف تفسيرًا دينيًا مؤيدًا لما ذهب إليه بالآية الكريمة ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...** ﴾(٣) فجعل علة سكون الزوج لزوجه أنها خلقت منه، وأن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الإتصال والإنفصال وأن الحديث الشريف " الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"(٤) يؤكد ذلك

(١) م. س باب " الكلام في ماهية الحب " ص ٦.

(٢) م. س. نفس الموضع ص ٧.

(٣) سورة الأعراف آية رقم (١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري عن عائشة ومسلم وأحمد و أبو داود عن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود.

المعنى. وبذلك نري كيف وظف ابن حزم الأدلة الدينية توظيفًا فلسفيًا لبيان ماهية الحب بالآية الكريمة من ناحية وبيان علة تعانق الأرواح المتحابة من خلال الحديث الشريف من ناحية أخرى وبذلك يهيأ ابن حزم لكلامه المرجعية الدينية التي تتفق وثقافته والتي تنأى بطبيعة الحال عن ثقافة اليونان (١).

وفي بعض الأحيان لم يجد ابن حزم مانعًا من الاستدلال بالتوراة في بعض المواضع مما يلقي لنا الضوء علي ثقافة ابن حزم الدينية، والتي اشتهر بها عبر الآفاق من خلال كتبه في الرد على أهل الفرق والعقائد الأخرى من يهودية ومسيحية ومانوية وكتابه " الفصل"، و" الصادع والرادع علي من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين " وكتابه " الرد علي من قال بالتقليد " وكتابه " الرد على ابن النغريلة اليهودي " وغيرها خير دليل علي كلامنا هذا.

واستدلال ابن حزم بالتوراة وهو واحد من أهم مؤرخي الأديان يدل أيضًا علي جواز الاستدلال بالكتب السماوية غير القرآن الكريم طالما أنها لم تصطدم مع أصل من أصول الدين، وموضوع استدلاله بالتوراة هنا حينما تحدث عن أثر الصورة الحسنة وموقعها من النفس فكما أن الصورة الحسنة علة في الحب فإن لها أيضا دورًا عجيبًا في اتصال أجزاء النفوس البعيدة وأن ذلك ليس في الإنسان فحسب بل في الحيوانات أيضا أي كل ما يلد، فيذكر حكاية قرأها في " السفر الأول من التوراة أن النبي يعقوب عليه السلام أيام رعيه غنمًا لابن خاله مهرًا لابنته شارطه

(١) سيأتي الكلام في ماهية الحب في الفصل الثالث من هذا البحث ان شاء الله .

علي المشاركة في إنسالها فكل بهيم ليعقوب، وكل أغر للأبان، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفًا ويترك نصفًا بحاله، ثم يلقى الجميع في الماء الذى ترده الغنم، ويتعمد إرسال الطروقة في ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين، نصفًا بهما، ونصفًا غرًا (١).أي أن الغنم يتأثر بصورة الغذاء الذي يأكله ويظهر هذا التأثر في شكل المولود فتجيء نصف المواليد غرًا والنصف الآخر بهمًا تأثرًا باختلاف صورة قضبان الشجر.

وابن حزم حين تحدث عن ظاهرة الحب لم يكن يقصد علي الإطلاق الحديث عن أي علاقة تخرج عن المنظومة الشرعية فعلي الرغم من أن تحليل الظاهرة أمر لا يندرج بالضرورة تحت حكمها ومع ذلك فقد كان ابن حزم حريصا كل الحرص علي إدخال حكم الشرع في المسألة التي يتحدث عنها إذا اقتضى الأمر ذلك وأحيانا نجد هذا الحرص في أبيات من الشعر الديني علي قدر عالٍ من العفة والبلاغة فعلي سبيل المثال نجده في باب " قبح المعصية " يرد أبيات تفصح عن موقفه الديني منها:

لا تتبع النفس الهوى ∴ ودع التعرض للمحن

إبليس حي لم يمت ∴ والعين باب للفتن

ومما يدل علي توفر حسن النية في كلام ابن حزم ولكي لا تختلط الأمور فإن الأمثلة والنماذج التي كانت محلًا لدراسة ابن حزم كانت تدور في

(١) " طوق الحمامة " باب " ماهية الحب " ص ١١

الغالب بين الزوجة والجارية ففي "باب الوصل " مثلا هذه الفقرة: " وما في الدنيا حالة تعدل محبيّن إذا عدما الرقباء، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل، وفقدا العزال، وتوافقا في الأخلاق وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقا دارا، وعيشاً قارًا، وزماناً هاديا، وكان اجتماعهما علي ما يرضي الرب من الحال، وطالت صحبتهما واتصلت إلى وقت حلول الحمام الذى لا مرد له ولا بد منه"(١)، فالسياق الذي عليه الكلام يدل علي أن هذين المحبيّن إما زوجّين، وإما جارية وسيدها، وعلي أي حال فإن " إجتماعهما علي ما يرضى الرب ".

ويستكمل ابن حزم حديثه عن أثر الوصل في نفوس المحبين فيذكر رواية لزياد بن ابي سفيان أنه قال: أن أنعم الناس عيشه، رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضى بها لا يعرفنا ولا نعرفه، فإبن حزم هنا يخبرنا عن نعمة العيش مع الزوجة التي مَنَّ الله عليها بنعمة الرضى، وهذا النعيم لا يكون إلا بين زوجين متحابين.

وأما الجارية فقد كان لها النصيب الأوفى في دراسة ابن حزم، ولعل السبب في ذلك أنها أقل شأنًا وشرفًا من الزوجة، ولذا فإن ابن حزم لا يأبه بذكرها عن ذكر الزوجة؛ لأن التسرى – وقد كان عادة جارية آنذاك – أنقص منزلة دون ما شك من العلاقة الزوجية، والجارية تباع وتشتري بخلاف الزوجة بما لها من قدسية ومكانة عند الزوج وليس أدل على ذلك من أن ابن حزم لم يذكر زوجته مطلقًا في أي موضع من

(١) م.س باب " الوصل " ص ٧٤

مواضع " الطوق " ولا حتي تلميحًا في الوقت الذي ذكر فيه علاقاته مع بعض جواريه وثمة أمر آخر وهو أن حكايات وأخبار الجواري أشهر من غيرهن من النساء والفتيات وعلاقاتهن أكثر من الحرائر اللاتي لا يطلع عليهن غير أزواجهن.

ولابن حزم عبارة تدل دلالة صريحة علي أنه يتحدث عن جارية فيروى قصة حدثته بها إمرأة يثق بها أن " جارية رائعة جميلة كان لها مولي، فجاءته المنية فبيعت في تركته فأبت أن ترضى بالرجال بعده"(١).

وفيما عدا الزوجة أو المملوكة فقد كان ابن حزم صارمًا شديد اللهجة فالحب المباح الذي تحدث عنه منذ قليل غير الهوى المستقبح والشهوة المرزولة وخاصة لو كانت طريقا للهلاك " وكثير من الناس يطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم ويتبعون أهواءهم، ويرفضون أديانهم، ويتجنبون ما حض الله تعالي عليه ورتبه في الألباب السليمة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى، ويخالفون الله ربهم ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة فيواقعون المعصية في حبهم " (٢).

وابن حزم يفرق تفرقة دقيقة بين الحب كعاطفة مخلوقة لله وبين أفعال العبد الاختيارية وذلك ردًا علي من يزعم أن الحب من صفات أهل البطالة " وما هذا وجه التصحيح فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهي عنه، إذ

---

(١) م.س باب " الوفاء " ص ٩٥

(٢) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٤٣

القلوب بيد مقلبها ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة " (١) فيبين ابن حزم في هذه الفقرة حيثية التكليف ويبين كذلك ما ينبغي علي المرء فعله حتي يفرق بين الخطأ والصواب، فما دام الأمر كذلك فإن الأسلم للمرء التصدي منذ البداية " لدواعي الهوى التي لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله عز وجل " (٢) والتي من أخطرها كما يري ابن حزم السمع والنظر فيقرر أن " الحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس " (٣) فابن حزم يري أن ماورد من النهى عن الهوى بنص التنزيل لشيئ مقنع " ولهذا حُرم على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأه أجنبية وقد جعلت النظرة الأولي لك والأخرى عليك، وقد قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم): من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر " (٤).ولذا فإن هذه الأمور من أمسك عنها فهو مقارع لنفسه محارب لها، ويورد ابن حزم الآية الكريمة ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... ﴾ (٥) فإن النظر وغيره من دواعي الهوى من مصائد أبليس – على حد تعبير ابن حزم – فقد كان من أشد الناس تمسكًا بالفضيلة مراعيًا لوجوب العفة فيحكى لنا قصة جرت له مع جارية "وقد ظهرت على صورة تعجز

(١) م.س باب " طي السر " ص ٤٣ وما بعدها
(٢) م.س باب " الوصل " ص ٧٣
(٣) م.س باب " الإشارة بالعين " ص ٣٩
(٤) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٤٦
(٥) سورة النور آية رقم (٣٠)

الوصاف، وقد طبق وصف شبابها قرطبة فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عني علي جاري العادة في التربية فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ويعادوه منسى الغزل، ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفًا علي لبي أن يزدهيه الاستحسان، ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل " (١)،وفيما يبدو أن هذه الجارية لم تكن مملوكة لأنها نشأت معه ولأنها كما يحكي ابن حزم إحدى قريبات إمرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والخير والحزم، فلفظ الجارية قد يطلق علي الفتاه ذات الحسب كما يطلق علي المملوكة التي تباع وتشترى والسياق يدلنا على مقصود ابن حزم إلام ينصرف لفظ " الجارية " عند إطلاقه.

وابن حزم يلتزم رأيًا لا يحيد عنه في الرد علي من ادعى أن الرجال أقدر علي قمع الشهوات دون النساء فيطيل العجب من ذلك فيرى أن " الرجال والنساء في الجنوح إلي هذين الشيئين سواء، وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتغوله الطمع، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته حتمًا مقضيًا وحكمًا نافذًا لا محيد عنه البته " (٢) وابن حزم قد أصاب الحق في رأيه، فالله سبحانه وتعالى لم يفرق بين رجل وامرأة يوم الحساب أو بين كهل وشاب فكل إنسان بما كسب رهين، وإني لأطيل أنا العجب من هذا الزعم وهذه

---

(١) " طوق الحمامة " لابن حزم باب " قبح المعصية " ص ١٤٩ .

(٢) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٤٥

التفرقة التي تفتقر حتمًا إلى الدليل، فالرجل والمرأة يشتركان بنفس القدر في الاستجابة لدواعي الشيطان وتكالب الشهوة إذا رق دينهما كما يشتركان بنفس القدر في قمع شهواتهما إذا غلب عليهما الصلاح إلا أن ابن حزم يفرق بينهما في حد الصلاح لما رأى الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة غلطًا بعيدًا " والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت، والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل، والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ولا يتعرض إلي المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع طرفه إلي الصور البديعة التركيب، والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شئ، وأما امرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا "(١).

وهنا يفرق ابن حزم تفرقة دقيقة بين الصلاح في المرأة والصلاح في الرجل على الرغم من أن حقيقة الصلاح في الحالين واحدة إلا أن تفرقته ترجع لأسباب سلوكية في الرجل والمرأة كما ترجع لطبيعة كل منهما، فأغلب النساء يملن بفطرتهن لوجود مقوم في حياتهن يسير أمرهن ويلعب دورًا كبيرًا إما في إصلاحهن وإما في إفسادهن، ولذا استوصى

(١) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٤٦ .

رسول الله الرجال بهن خيرًا والمفهوم من كلام ابن حزم وجود أثر لذلك المقوم بدليل " ضبطت " و" قطعت " وحيل " كما أنها تفتقد الجرأة التي للرجال فكثيرات منهن لا يقدرن على امتلاك زمام المبادرة أو إظهار رغبتهن فيمن يرغبن، ونادرًا ما يحدث لأن ذلك يخالف طبيعتها كأنثى فهي وإن فعلت فكثير ما يكون عن طريق الحيل لأن المرأة متحفظة بطبيعتها حتى ولو كانت فاسدة وذلك خشية افتضاح أمرها أو أن تشتهر بين ذويها بالفاحشة، أما الرجل فعلي العكس من ذلك فهو أجرأ في إظهار رغبته التي قد يباهي بها رفاقه، فهو قادر علي المبادرة، والفاسق منهم لا يتحيل الأمر كالفاسقة من النساء بل يقدم بنفسه على مباشرة أهل النقص ولايخشى الخلوة، وغير ذلك مما يؤدي إلى الهلاك. كما أن المرأة هي غاية الرجل لأن الافتتان بها أعظم من افتتان المرأة به، ولذا اختلفت الطرائق في نزوع كل منهما بالفاحشة نظرًا لاختلاف الطبيعة في كلٍ، ولعل هذا ما أراده ابن حزم كما نفهم من عبارته.

وابن حزم يتحدث عن فاحشة الزنى ولكن على سبيل التبعية بمعنى أن هذه الفاحشة وغيرها نتيجة لاستخفاف المرء بالمعصية، فدواعي الهوى تقود حتمًا إليه ويعلل ذلك بأن بنيتنا مدخولة وضعيفة، وما أعظم حاجتنا وفاقتنا إلى عصمته.

ولابن حزم أبيات في النهى عن اتباع الهوى علي سبيل الوعظ منها

صن النفس عما بها وأرفض الهوى ∴ فإن الهوى مفتاح باب المهـــالك

رأيت الهوى سهل المبادي لذيذهـــا ∴ وعقباه مر الطعم ضنك المسالك

وثمة أمر هام أردت أن اختتم به الجانب الديني من كتاب " الطوق " وهو موقف ابن حزم من " الحب الإلهي " فابن حزم لم يقل به ولم

يعترف بالتصوف يومًا، فهو بلا شك يتناقض مع مذهبه الظاهري إلا أن محبته لله تمثلت في شكره وطاعته ومجاهدة نفسه والتزام شرائعه فيقول: " ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار وإتعاب الأبدان وإجهاد الطاقة واستنفاد الوسع واستفراغ القوة في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استئقالها وامتن علينا بالعقل الذي بـــه عرفناه ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ودبرنا التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا، وفضلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها " (١) فطريقه إذا في محبة الله غايته شكره وعبادته لا الاتحاد به كما تقول الصوفية فالمحبة عنده ضروب " أفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل، إما لاجتهاد في العمل، واما لاتقان في أصل النحلة والمذهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان " (٢) فالدين والعلم والعمل عنده أسباب التقاء المتحابين وتلك هي المحبة الحقيقة عنده، ولم يذهب لما ذهب إليه الفلاسفة من أن الحب الإنساني يسهم فى توجه النفوس نحو الحب الالهي والاتحاد مع الله كما قال ابن سينا وغيره (٣).

(١) م.س باب " فضل التعفف" ص ١٧١ .

(٢) م.س باب " الكلام في ماهية الحب " ص ٨ .

(٣) إذا افترضنا أن من المحقق والمعقول الوصول إلى حالة من الاتحاد بين الصوفي والذات الإلهية ، وأن هناك علاقة متبادلة بين العبد والرب ، فأين مظاهر ذلك التبادل ؟! وما الكيفية النفسية أو الروحية التي يستطيع معها الصوفي الوصول لذلك الاتحاد ؟! وما الدليل علي ذلك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخري ما الكيفية الربانية التي يتجلى بها الرب (الذات المحبوبة) وهي أكمل الذوات علي العبد الذى هو (الذات المحبة) ؟! هذا إذا اعتبرنا منذ البداية أن الحب عاطفة تقتضي وجود ذاتين مشخصتين لا ذاتين إحداهما فانية والأخرى إليهة غيبية لا تقبل الفناء بأي حال . وهل فناء

المبحث الثاني
الجـــــــانب الأخلاقي

العفة واحدة من أرقى الفضائل الخلقية، اختصها ابن حزم وهو يتحدث عن أخلاقيات الحب من بين سائر الفضائل، وأفرد لها بابًا خاصًا اختتم به دراسته فى الحب وسماه " فضل التعفف"، فالتعفف كان مقصدًا رئيسيًا لابن حزم في هذا الباب وقد استهله بعبارة تؤكد ذلك فقال: " ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حب التعفف "، وقد حث عليه حتى يمر متبع الهوى إلي بر النجاة.

وابن حزم كان دقيقًا حينما أورد باب " قبح المعصية " قبل باب " فضل التعفف " حيث بدأ بتحديد المنهج فجعل الشرع حكمًا في باب " قبح المعصية " ثم أعقبه بدور المكلف وموقفه حيال هذا المنهج فجعل الضمير حكمًا في باب " فضل التعفف ". وهذا الترتيب المنهجي لابن حزم غير أنه يتفق تمامًا مع مقاصد الشريعة في حق المكلف في إرادة الفعل إن شاء فعل وإن شاء ترك فإنه في الوقت ذاته يهدف إلي تحديد نوع المسئولية – شرعية كانت أم خلقية – الملقاة علي عاتق المحبين اللذين لم يجتمعا علي ما يرضي الرب، كما يهدف إلي التنبيه علي مصدر الإلزام في كل نوع منها.

وابن حزم كما تحدث عن العفة تحدث كذلك عن فضائل أخري في

ذات المحب (الصوفي) يقتضي فناء ذات المحبوب (الإله) نظير ذلك الحب ومكافأة عليه طالما أن الفناء هو الغاية القصوى التي يبغيها المحبون ؟! أو بعبارة أخرى التي يبغيها المتصوفون القائلون بالاتحاد ؟! .

مواضع كثيرة من كتابه " الطوق " كالحياء والصدق والوفاء سواء بين المحبين، أو بين الزوجين أو حتى بين الأصدقاء، وهذا الأخير هو أول ما يصادفنا من أنواع الحب في كتاب " الطوق " فيحكي لنا ابن حزم عن صديق له وعن مبلغ حبه له حتى أنه ما ألف كتاب " الطوق " إلا تلبية لمطلب هذا الصديق، واعتزازه به لتمسك صديقه هذا بحبل الوفاء ورعاية حق النشأة ومحبة الصبى التي بينهما .

ويضع ابن حزم لنفسه منهجًا أخلاقيًا اتبعه في كتابه ولم يحد عنه وهو الالتزام التام بحفظ أسرار الناس لما اقتضت الضرورة لذكر نماذج من البشر إما شاهدها بنفسه، وإما حدثه بها الثقات من أهل زمانه، وهذه النماذج هي التي أجرى عليها ابن حزم دراسته في الحب وكانت محلًا لاستقراءه فكان تجاهها على أحد أمرين:

الأول: إما أن يكنى عن أسماءها فهي إما عورة لا يجيز ابن حزم كشفها أو يكنى عنها حفاظا علي صديق ودود أو رجل جليل.

الثاني: التصريح بمن لا ضرر في تسميته بحيث لا يلحقه ——— أي ابن حزم ——— أو من صرح به عيب في ذكره إما لاشتهار خبره وذيوعه بحيث يصير الكتمان حينئذ أمرًا لا داع له. وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره غير منكر لنقله (١).

وهذا المنهج الذى التزم به ابن حزم يعكس لقارئ " الطوق " ما كانت عليه أخلاق هذا الفقيه الإمام من حفظ العهد وصون الأمانة فيمن يحكي عنهم سواء أخبروه بتجاربهم العاطفية أم لم يخبروه، وخاصة أن

(١) انظر : " طوق الحمامة " لابن حزم ص ٣ باختصار وتصرف .

منهم الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين، وبعض رجال الدولة، وهو يذكرنا بحقوقهم عليه فيقول: " ولولا أن حقوقهم علي المسلمين واجبة – وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم مافيه الحزم وإحياء الدين، وإنما هو شئ كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم – لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل "(١). كما أن منهم أيضا بعض الصالحين والفقهاء إلا أنه استغنى بأشعارهم عن ذكرهم ومنهم عبيد الله بن عتبه بن مسعود وهو أحد فقهاء المدينة السبعة وشعره فيه الكفاية (٢).

وهذا رجل من شيوخ ابن حزم يلتزم لأجله الصمت عن بيان شخصه فيقول:"وحدثني... عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره " (٣) فاحترامه لسيرة شيخه الذاتية به بُعْد أخلاقي آخر غير حقه عليه في حفظ سره وهو علو مقام المعلم وتقدير ابن حزم لهذا المقام، وهو يعتذر في خاتمة رسالته عن ذكر هؤلاء الناس فيقول: " وسيرى كثير من إخواننا أخبارًا لهم في هذه الرسالة مكنيًا فيها من أسمائهم علي ما شرطنا في ابتدءاها، وأنا استغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه استغفار من يعلم أن كلامه من عمله، ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللمم المعفو " (٤).

وإذا كان لكل هؤلاء حق علي ابن حزم فإن المرأة لا تقل حظًا من

(١) م.س ص ٦.

(٢) م.س ص ٧ بتصرف .

(٣) م.س باب " الضنى " ص ١٢٢.

(٤) م.س ص ١٨٠.

التستر والكتمان من كل هؤلاء فكتاب " الطوق " ملىء بأخبار النساء الحرائر والفتيات والجواري وبعض الزوجات، وابن حزم قد أطلع علي قدر عظيم من أخبارهن وكشف له الكثير من أسرارهن فكان أمينا علي هذه الأسرار فيقول: " وكن قد أنسن منى بكتمان فكن يطلعنني علي غوامض أمورهن، ولولا أن أكون منبهًا علي عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن في السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب (١)، ويقول في موضع آخر من " الطوق ":" ولولا أني لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد لأوردت مما صح عندي أشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل أسبل الله علينا ستره وعلي جميع المسلمين بمنه وكفانا" (٢).

ويتحدث ابن حزم عن أثر الحب في تهذيب النفس وكيف أنه قادر علي أن يكسب الفرد أخلاقًا جديدة لم يكن يتحلى بها من قبل، وكيف أنه قادر فى ذات الوقت علي أن يخليه عن صفات لم يكن يحمد عليها " ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعا به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له والمسعى في حظه، كل ذلك ليبدي محاسنه ويُرَّغِبُ في نفسه فكم بخيل جاد، وقطوب تطلق، وجبان تشجع، وغليظ الطبع تطرب، وجاهل تأدب، وتفل تزين، وفقير تجمل، وذي سن تفتى، وناسك تفتك، ومصون تبذل " (٣).

ولقد قسم ابن حزم أخلاقيات الحب إلي قسمين:

(١) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٤٨.
(٢) م.س باب " من أحب من نظرة واحدة " ص ٢٨.
(٣) م.س باب " علامات الحب " ص ١٥.

أولا: أخلاقيات محمودة: " كالوفاء، وطي السر، والطاعة، والقنوع، والصدق، والحياء، وتمنى أن يتستر المحبين بعد كل هذا برداء العفة. ونفهم من كلام ابن حزم أن للحب تأثيرًا مباشرًا في تهذيب أخلاق المحبين ورقة طبائعهم فربما " يكون المرء شرس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضي العزيمة، حمى الأنف، أبي الخسف فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ويتورط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة ليانًا والصعوبة سهلة، والمضاء كلالة، والحمية استسلامًا " (١).

ثانيا:أخلاقيات مذمومة: ومنها: إذاعة سر المحبوب أو مخالفته أو الغدر به، ويرى ابن حزم أن هذه الصفات "غير صفة أهل الحب وأن المتصف بها دعواه في الحب دعوى زائفة" (٢).

ويستفيض ابن حزم في الكلام عن الوفاء من أعراض الحب ويصفه بأنه " من حميد الغرائز، وكريم الشيم، وفاضل الأخلاق في الحب وغيره، وأنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين علي طيب الأصل وشرف العنصر " (٣).

ثم يقسم وفاء المحبين إلى مراتب ثلاثة:

أولها: أن يفي الإنسان لمن يفى له.

ثانيها: الوفاء لمن غدر

ثالثها: الوفاء مع اليأس البات بعد حلول المنايا وفجاءات المنون.

فيوضح مايكون منها من جانب المحب والمحبوب وهي المرتبة

---

(١) م.س باب " الطاعة " ص ٥٠.

(٢) م.س باب " الإذاعة " ص ٤٧ بتصرف .

(٣) م.س باب " باب الوفاء " ص ٩٢.

الأولي، وما يكون من جانب المحب فقط وهي المرتبتان الثانية والثالثة، ويذكر السمات الشخصية التي يكون عليها المحب والغاية من وفائه وأفضل أنواع الوفاء في كل مرتبة كما يضرب الأمثلة علي كل ذلك، فيري ابن حزم أن من يحول عن الوفاء لمن يفى له إنسان لا خلاق له ولا خير عنده، وأن القادر على الوفاء لمن غدر به إنسان " جلد قوى، واسع الصدر، حر النفس، عظيم الحلم، جليل الصبر، حصيف العقل، ماجد الخلق، سالم النية،... وغاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافأة الأذى بمثله والتأني في جر حبل الصحبة ما أمكن... وهذه الصفة حسنة جدًا وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم علي أي حال كانت " (١)، أما من آثر الوفاء مع اليأس فإن الوفاء في هذه الحالة لأجل وأحسن منه في الحياة ومع رجاء اللقاء، ويضرب ابن حزم مثالًا لهذا الوفاء بجارية " رائعة جميلة مات سيدها فلما بيعت في تركته أبت أن ترضى بالرجال بعده، وكانت تحسن الغناء فأنكرت ذلك، وفضلت الخدمة على حياة الجواري المنعمة وفاءًا منها لسيدها الذى توفى، ولما أرادها سيدها الجديد امتنعت عنه رغم تأديبه لها بالضرب وأقامت على امتناعها، ولم يجامعها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل"(٢).

وابن حزم كما تحدث عن وجوب الوفاء بين المحبين تحدث كذلك عن الوفاء بين الأصدقاء فيحكي لنا خبرًا عن نفسه وصديق له وقد غدر به بأن أفشى أسرارًا قد اطلع عليها لابن حزم فلما علم أن غدره قد نما

(١) م.س " نفس الموضع " ص ٩٣.
(٢) م.س باب " الوفاء " ص ٩٥ بتصرف .

لعلم ابن حزم خشى أن يبادله غدراَ بغدر فكتب إليه ابن حزم شعرًا يؤنسه فيه بأنه لن يقابل السوء بالسوء.

ويختتم ابن حزم حديثه عن الوفاء بأمرين هامين:

أولهما: التأكيد علي أن الوفاء علي المحب أوجب منه علي المحبوب وشرطه له ألزم لأنه البادي باللصوق والقاصد لتأكيد المودة، أما المحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحوه فهو مخير في القبول أو الترك فإن قَبِلَ فغاية الرجاء، وإن أبي فغير مستحق للذم.

ثانيهما: أن للوفاء شروطًا لازمة على المحبين منها: أن يحفظ المحب عهد محبوبه ويرعى غيبته، وتستوى علانيته وسريرته. ويطوي شره، وينشر خيره، ويغطي على عيوبه، ويحسن أفعاله، ويتغافل عن هفواته، ويرضي بما حمله، ولا يكثر عليه بما ينفر منه، وعلى المحبوب إن ساواه في المحبة مثل ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته (١).

ومن الصفات المحمودة في الحب كذلك: طي سر المحبوب، والكتمان على أمره إن سئل عنه " وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب علي محبوبه، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع... وربما كان من أسباب الكتمان الحياء الغالب علي الإنسان " (٢)، وللكتمان أسباب أخري يوردها ابن حزم منها: خوف المحب أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، وربما كان سبب الكتمان الخوف من نفور المحبوب أو إعراضه،

---

(١) م.س باب " الوفاء " ص ٩٦ باختصار وتصرف .

(٢) م.س باب " طى السر " ص ٤٥ .

وربما توقى المحب علي نفسه من إظهار سره لجلاله قدر المحبوب.

ومن صفاته أيضا: طاعة المحب لمحبوبه، وترك مخالفته وتحمل عتابه دون ذنب (١)، والقناعة بأقل ما يجود به ولو كان زيارة طيفه (٢). والقناعة صفة خلقية محمودة ليس في الحب فقط بل في كل الأمور.

وابن حزم كما تحدث عن الصفات المحمودة في الحب تحدث كذلك عن ضد هذه الصفات مما يمكن أن يبدر من بعض المحبين، وراعي في الوقت ذاته أن يضع الضد بجنب ضده، ورتب أبواب " الطوق " على هذا النسق، فجعل مثلًا " باب الوفاء " بجانب " باب الغدر " و" باب طي السر " بجانب " باب الإذاعة " وباب " الطاعة " بجانب " باب المخالفة ". ولقد أراد من هذا الترتيب أن تتضح المعاني " وبالضد تتميز الأشياء "(٣) كما يقول ابن حزم.

والغدر من الصفات المذمومة التي تحدث عنها ابن حزم بعدما استفاض في صفة الوفاء، وهو يعتبر العذر من البادي لا من المقارض (٤)، وإنما يستوى المقارض بالغادر في التسمية فقط وإن استوى معه في حقيقة الفعل إلا أن فعله ليس بسيئة ولا يعد معيبا بذلك، ويستدل بقول الله تعالي " وجزاء سيئة سيئة مثلها " ويري ابن حزم أن أقبح الغدر غدر المؤتمن على الأسرار كأن " يكون للمحب سفير إلى محبوب يستريح إليه

---

(١) م.س باب " الطاعة " ص ٥٠.

(٢) م.س باب " القنوع " ص ١١٦ .

(٣) م.س ص ٤٣ .

(٤) المقارضة : تقارضا الشئ أو الأمر تبادلاه ، والمقارض هو الشخص الذي يرد بمثل ما عومل به .

بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به دونه " (١).

ومن الصفات المذمومة في الحب كذلك " الإذاعة " بمعنى إفشاء المحب لسر محبوبه " وهو من منكر ما يحدث من أعراضه " (٢)، وهو سبب كاف في نفور المحبوب يكرهه ويتأذى به، وللإذاعة أسباب يذكرها ابن حزم منها سبب يعتبره ابن حزم " عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط، وذلك أن يرى المحب من محبوبه غدرًا أو مللًا أو كراهة، فلا يجد طريق الا نتصاف منه إلا بما ضرره عليه أعود منه علي المقصود من الكشف والاشتهار، وهذا أشد العار وأقبح الشنار، وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف " (٣)، ومنها سبب ليس من المحب ولكنه يرضى عنه، وهو أن ينتشر الخبر وتفشو الأقاويل فيوافق ذلك قلة مبالاة من المحب لأسباب تخصه، ويضرب ابن حزم مثلا بنساء الأعراب أن هذا الفعل يرضيهن والأكثر من ذلك أنهن لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر بكشف حبه، ويتساءل ابن حزم "أي عفاف مع إمرأه أقصى مناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى".

ويواصل ابن حزم تحليله لصفات الحب وأعراضه المذمومة، ففي باب " المخالفة " يطلعنا علي صفة مذمومة أخرى غير ما ذكر وهي إيثار المحب لنفسه علي رغبة المحبوب وذلك بأن يتعمد الوصول لمسرته من محبوبة علي كل الوجوه دون الالتفات لسخطه أو رضاه،

---

(١) " طوق الحمامة " باب " الغدر " ص ٩٩ .

(٢) م.س باب " الإذاعة " ص ٤٧ .

(٣) م.س نفس الموضع ص ٥٠ .

وأمر آخر مذموم يصفه ابن حزم بأنه طبع خسيس وهو أن يرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب ويصف صاحب هذا الفعل بأنه ضال العقل، فاسد القريحة، فاقد التمييز، يفتقر للغيرة، معدوم الأنفة، مع حب شديد أعمى ويفسر ابن حزم وجود هذا الطبع بأنه " إذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودخول بعضها في بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس وتولدت هذه الصفة الرذلة وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح، أما رجل معه أقل همة وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا ولو مات وجدًا وتقطع حبًا (١).

وكتاب " الطوق " ملئ بالنصائح الأخلاقية بعضها مباشر لموضوع الحب كما ذكرت، وبعضها ورد على سبيل التبعية فعلى سبيل المثال تحدث ابن حزم عن " الواشي " من آفات الحب، ثم أورد بعد الكلام عن ضروب الوشاية ما يشبه هذه الصفة كالنميمة والكذب فالنميمة طبع " يدل علي نتن الأصل ورداءة الفرع وفساد الطبع وخبث النشأة، ولابد لصاحبه من الكذب، والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه، وكل نمام كذاب " (٢). ويورد ابن حزم الأدلة الدينية علي قبح هذه الصفات ثم يفرق بين الناصح والنمام ويبين أنهما " صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوتتان في الباطن إحداهما داء والأخرى دواء " ويستند في الفرق بينهما علي الشريعة.

وحديث ابن حزم عن الفضيلة والعفة في خاتمة كتابه " الطوق "

---

(١) م.س باب " القنوع " ص ١٢١ .

(٢) م.س باب " الواشي " ص ٦٥ .

هو في تقديري أهم جانب ورد به – فليس ثمة شك – في أنه لابد في كل فعل من وجود باعث عليه ذلك الباعث هو النفس، فلما كانت النفس الإنسانية مبدءًا رئيسيًا في تلك الأفعال خاصة أن الإنسان إنما يأخذ مختارًا بزمام نفسه كان تصارع قوى النفس وغلبة إحداها علي الأخرى دلالة علي أخلاق صاحبها وبها تستبين إما فضائله وإما رذائله، ومن مشيئته تعالي أن ركب في الإنسان طبيعتين متضادتين:

"إحداهما: لا تشير إلا بخير ولا تحض إلا على حسن، وهي العقل، وقائدها العدل.

والثانية: ضد لها لا تشير إلا إلي الشهوات ولا تقود إلا إلي الردى وهي النفس وقائدها الشهوة.. فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان وهما قوتان من قوى الجسد الفعال... فهما يتقابلان أبدًا ويتنازعان دأبًا، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان وقمع عوارضه المدخولة واستضاء بنور الله وابتع العدل، وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة، ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح " (١)، وعلى ذلك فإن ابن حزم يرد العفة في الإنسان إلى أحد أمرين: إما إلى الطبيعة الأولى والتي يحتمي أصحابها " بالاستعاذة بالله من القبائح واستدعاء الرشد ولذلك منّ الله عليهم بعصمتهم بانقطاع السبب المحرك، وإما إلي بصيرة حاضرة وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين لخير أراد الله عز وجل لصاحبه " (٢).

ويختتم ابن حزم كتابه بأسلوب يمتزج فيه الوعظ بالوعيد والنصح

---

(١) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٤٣ وما بعدها .

(٢) م.س باب " فضل التعفف " ص ١٦٩ باختصار وتصرف .

بالهداية والخوف مع الأمل فمن " عرف ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفاني، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعر لسماعه الأجساد، وتذوب له النفوس، وأورد علينا من عذابه مالم ينته إليه أمل فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم، وما الرغبة في لذة ذاهبة لاتذهب الندامة عنها، ولاتفنى التباعة منها، ولا يزول الخزي عن راكبها، وإلي كم هذا التمادي وقد أسمعنا المنادي، وكأن قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فإما إلى جنة وإما إلي نار " (١).

ويذكرنا ابن حزم بمدح رسولنا الكريم لرجل دعته إمرأه ذات حسب وجمال فقال: إنى أخاف الله.

(١) م.س نفس الموضع ص ١٧٢.

المبحث الثالث

الجـــانب المنطقــــــــي

ربما لا يتضح للوهلة الأولى وجود ملامح للجانب المنطقي في دراسة ابن حزم التي بين أيدينا، والحق أننا لو أمعنا النظر ليس فقط في " الطوق " فحسب بل في سائر مؤلفات ابن حزم لأمكننا هذا من الوقوف علي عقلية منطقية منظمة تجيد استخدام المقدمات استخدامًا سليمًا، ومن ثم إفادتنا بالنتائج المرجوة من البحث فقهيًا كان أم كلاميًا أم غيرها من البحوث التي اضطلع بدراستها ابن حزم، ومن ثم ليس زعمًا منا أن نقول أن كتابه " الطوق " يشمل أمورًا كثيرة تخضع للمنطق، منها مسائل بعينها لم يعمد إليها ابن حزم لكننا نستطيع أن نجعلها أطروحة منطقية. كإخضاع الحب كمفهوم لتساؤل مؤداه: هل الحب نوع أم جنس ؟، ومنها كذلك كلامه عن حقيقة الضد وأحكامه، وتوظيفه لمفهوم الضد في البحث عن أضداد الحب، والعلامات المتضادة للحب، والاعتماد عليه في ترتيب أبواب كتابه كما سبقت الإشارة، واستخدامه لبعض العمليات المنطقية كالتقسيم مثلًا والإفادة منه في بعض الأبواب ففي كلامه عن آفات الحب تحدث عن أقسام الرقباء، كما تحدث عن ضروب الواشي، والفرق بين أنواع التجني، كما ذكر ضروب الهجر، وأقسام البين، وأقسام السلو، وفي حديثه عن أعراض وصفات الحب تحدث عن أقسام الوعد في " باب الوصل " كما ذكر مراتب الوفاء، وغير ذلك كثير، فمن خلال هذه التقسيمات جاء رصد ابن حزم لعاطفة الحب دقيقًا رائعًا، وجاءت تحليلاته أكثر عمقا وأكثر استيعابًا لخصائص تلك العاطفة، كما توقفنا هذه

التقسيمات علي قوة تمييز ابن حزم بين هذه الفروق وهو يطلعنا علي أمور المحبين وأحوالهم في هذا السرد الجميل.

وعود علي بدء نقول: هل الحب نوع أم جنس ؟

لم أقصد هنا الكلام عن أنواع الحب – فهذا مبحث آت – بل أقصد هنا الإجابة عن هذا السؤال فقط، والذى دعـــاني إليه – رغم بساطته – اختلاف تعـــبيرات ابن حـــزم في هذه المسألة في رسالتيه: " الطوق "، و" الأخلاق والسير " ففي " الطـــوق " عبر عن " النوع " بالضرب وعن " الأنواع " بالاجناس " علمنا أن المحـــبة ضروب: فأفضـــلها محبة المتحابين في الله عز وجل... ومحبة القرابة، ومحبة الألفة... ومحبة العشق... وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها " (١) ويقصد بالأجناس هنا ضروب المحبة في حين يورد في رسالته " الأخلاق " عنوانًا صريحًا " فصل في أنواع المحبة: وقد سئلت عن تحقيق القول فيها، وفي أنواعها، المحبة – كلها – جنس واحد " (٢) وبالمقارنة بغيره نجد " الجاحظ (٣) مثلا يعبر عن أنواع الحب " بالأصناف " وابن قيم(٤) بقوله: " المحبة أم باب هذه الأسماء " يقصد أن المحبة جنس.

فبالنظر لكل هذه الإطلاقات نجد أنه لا تناقض أو ثمة خلاف أو اختلا ف لغوي أو منطقي بين رسالتي ابن حزم أو بين ابن حزم وغيره ممن ذكر.

---

(١) م.س ص ٨.

(٢) " كتاب الأخلاق والسير " لابن حزم ص ١٢٩.

(٣) " رسالة فى العشق والنساء " للجاحظ ص ١٤٢ .

(٤) روضة المحبين " لابن قيم ص ٢٢ .

وبيان ذلك:

أن اللغويين يطلقون على النوع: الصنف والضرب على سبيل الترادف (١) وهو استعمال سليم من حيث اللغة، كما أن المنطقيين يعبرون عن " الشكل " بالضرب فمثلا قولهم: " ضروب القياس " يعني " أشكال القياس " وعليه فالمقصود من قول ابن حزم: " ضروب المحبة " أي " أشكال المحبة " فلا تعارض إذن بين قوله: أشكال المحبة أو ضروب المحبة التي وردت " بالطوق " وبين قوله: " أنواع المحبة " التي وردت " بالأخلاق والسير ".

أما إطلاق " الأجناس " علي " الأنواع " الوارد " بالطوق " فهو جائز أيضًا؛ لأن الألفة أو العشق أو سائر أنواع المحبة بالإضافة إلي ما فوقها تسمي نوعًا إضافيًا (٢) ويجــوز منطقيًا أن يقال عليها جنس بالقياس لما فوقها أي " المحبة " فهى جنس لكل هذه الأنواع، وهذا الإطلاق لا يعني أن الألفة مثلا جنس لما تحتها بل هي نوع لما فوقها ولكن يندرج تحتها أشخاص مختلفون بالعدد.

أما كون المحبة نوع أو جنس فهي جنس بلا خلاف في ذلك، فابن حزم حينما ينص علي أن " المحبة ضروب " إنما يعني أنها جنس يندرج تحته أنواع، كما أنه ينص صراحة علي أن المحبة جنس برسالة " الأخلاق " ويدلل علي ذلك بأن اليهود والمجوس يتعشقان الابنة وابنة

---

(١) " الصنف : بالكسر والفتح ، النوع والضرب " ، " القاموس المحيط " للفيروز ابادي ج ٣ ص ١٦٣.

(٢) النوع الإضافي : وهي ماهية يقال عليها وعلي غيرها الجنس قولاً أوليًا أي بلا واسطة كالإنسان بالقياس إلى الحيوان " " التعريفات " للسيد الشريف الجرجاني ص٢٦٨ .

الأخ في الوقت الذي لا يتجاوز المسلم فيه هذا الحد ولا يطمع في الوصول إليهما بعشقه " فلاح بهذا عياناً ما ذكرنا من أن المحبة كلها جنس واحد، ولكنها تختلف أنواعها علي قدر اختلا ف الأغراض فيها"(١) أي أن ماهية الحب ثابتة لا تتنوع بتنوع المحبوبات.

ومما يدل علي اتفاق القول في أن المحبة جنس، وجه آخر يذكره ابن الجوزي " واعلم أن المحبة جنس، والعشق نوع، فإن الرجل يحب أباه وابنه، ولايبعثه ذلك علي تلف نفسه، بخلاف العاشق " (٢)، وقول آخر: لابن قيم الجوزية ذكره بعد ذكره لأسماء المحبة واشتقاقاتها يقول: "والمحبة أم باب هذه الأسماء "(٣) يقصد كونها جنسًا لها، فكل عشق محبة وليس كل محبة عشقاً.

وقد تكون المحبة جنسًا لما تحتها نوعًا لما فوقها فهي مع غيرها من سائر المشاعر الباطنة تصير نوعًا من أنواع الوجدانات ككل، إلا أني لم أطلع علي أن أحدًا ذكرها نوعًا من هذا المنطق الذي ذكرته وإن صح ذلك عندي.

أضداد الحب:

تحدث ابن حزم عن أضداد الحب، وكان له فيها رؤية عميقة الغور تنم عن منهجه الديني في حقيقة المحبة عنده لا برؤية الصوفي بل برؤية هي في الأصل جوهر الإسلام الذي نادي بالحب وجعل محبة الله ورسوله مناطًا للإيمان الحـــق، فيرى أن المحبة في غير ذات الله أولى

(١) " كتاب الأخلاق والسير " لابن حزم ص ١٣١ وما بعدها .

(٢) " ذم الهوى " لا بن الجوزي ص ٢٦٤.

(٣) روضة المحبين " لابن قيم ص ٢٢ .

بأن تستحيل بغضًا " وإن فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصـــلين في غير ذات الله تعالى بعـــد الألفة وتدابرهم بعد الوصال، وتقاطعهم بعد المودة، وتباغضهم بعد المحبة، واستحكـــام الضغائن، وتأكد السخائم في صدورهم، لكاشفًا ناهيًا لو صادف عقولًا سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة " (١) فذكر من أضداد الحب: العداوة، والإدبار، والمقاطعة، والمباغضة، والضغينة مع اختلاف ما تتضمنه هذه الأضداد من معاني دقيقة تفرق فيما بينها إلا أن ابن حزم لم يلتفت إليها بل ذكرها بشكل عرضي ليس مقصودًا في ذاته بل الغرض منها كما يشير ابن حزم أن " بالضد تتميز الأشياء " (٢).

وابن حزم يصرح في بداية " الطوق " باختلاف المتكلمين في حقيقة الضد ويستدرك بقوله: " لولا خفنا إضافة الكلام فيما ليس من الكتاب لتقصيناه " وهذا الاستدراك في حد ذاته يدل علي مراعاة المنهجية والالتزام بالوحدة الموضوعية للكتاب كما يدل علي سعة معارفه أيضا في مجال البحوث المنطقية وإطلاعه علي اختلاف المتكلمين وحصره لما يدور بينهما في منازعات.

وموضع آخر يوقفنا فيه ابن حزم علي بعض أحكام الضد ففي باب " علامات الحب " يذكر أن هناك علامات متضادة للحب تشبه في حقيقتها سائر الأشياء المتضادة التي تتشابه إذا زاد الإفراط فيها، فالضحك مثلًا اذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين، وكذا المحبة إذا تكافأت بين

(١) " طوق الحمامة " لابن حزم باب " قبح المعصية " ص ١٥٦.

(٢) م.س ص ٤٣

المحبين وتأكدت بينهما تأكدًا شديدًا ظهرت منهما علامات توحي بالكراهية كتضادهما في القول عمدًا وخروج بعضهما علي بعض في كل يسير من الأمور وتأول كل منهما لفظة تقع من صاحبه علي غير معناها، وكل هذا في واقع الأمر ماهو إلا تجربة يجريها الأحبة فيما بينهما لإظهار ما يعتقده كل منهما في الآخر إلا أن ابن حزم يفرق بين هذا الخلاف المصطنع والتشاجر الحقيقي الذى لا يزول بطول الزمن بأن المحبين إذا بلغا غاية الاختلاف سرعان ما يرضي كل منهما عن الآخر، وبنظرة رجل حكيم يعلق ابن حزم علي ذلك بقوله: " وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك في أن بينهما سرًا من الحب دفينا"(١).

(١) م.س ص ١٧ .

المبحث الرابع
الجـــانب الكلامــــــــي

إذا كنا قد تحدثنا عن تأثير ابن حزم المنطقي في كتابه " الطوق " فقد وجب علينا الآن أن نتحدث عن تأثير ابن حزم المتكلم في ثنايا " الطوق " مما له شأن في موضوع الحب، وأول ملامح هذا التأثير يبدو في مقدمة الكتاب فيذكر أنه قسم رسالته علي ثلاثين بابًا منها اثنا عشر بابًا في " أعراض الحب وصفاته " وسرعان ما يثير ابن حزم خلال هذا التقسيم أول قضية من قضايا الحب وهى أن الحب عرض والعرض لا يحتمل الأعراض وصفة، والصفة لا توصف فيذكر أن أهل اللغة قد يقيمون الصفة مقام الموصوف على سبيل المجاز فيجوز على ذلك أن نذكر صفات وأعراض من كان في الأصل عرضًا: أعنى الحب.

ويثير ابن حزم قضايا ومسائل أخرى على مدار " الطوق " اعتنى المتكلمون بشأنها كثيرًا كقضية الإدراك الحسي (١)، وقضية أخرى أكثر أهمية وهي علم الله تعالى وبعض أحكامه، كما تكلم عن قوى النفس (٢) في موضعين من " الطوق "، وفي مواضع أخرى كانت له تشبيهات لها طرافتها تبدو فيها صناعة الكلام كتشبيه إمرأة جميلة بأنها " أصفى من الماء وألطف من الهواء... وأشد امتزاجًا من اللون في الملون، وأنفذ استحكامًا من الأعراض في الأجسام (٣).

(١) سيأتي بيانه تحت عنوان " علاقة الحب بالإدراك الحسي " في الفصل الثالث من هذا البحث .
(٢) راجع في هذا الشأن " الجانب الأخلاقي " من هذا البحث
(٣) " طوق الحمامة " لابن حزم باب " قبح المعصية " ص ١٥٦

أما قضية كقضية علم الله تعالى فقد يستبعد القارئ أن لها موضعًا في دراسة موضوع كموضوع الحب، إلا أن ابن حزم يراها ليست ببعيدة، فبعد أن قدم وجوهًا مختلفة لقناعة المحبين فيما بينهم يورد وجهًا اتخذ من نفسه مثالًا له أي لقناعته هو من محبوبه، وأراد من هذا الوجه أن يتحدى به الشعراء الذين أرادوا إظهار اقتدارهم علي المعاني الغامضة والمرامي البعيدة فيذكر أن منهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما، ومنهم من قنع باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما، وما شابه ذلك أما هو فهو " قانع بالاجتماع مع من أحب في علم الله "(١) .

وهذا معنـــاه أن علم الله هنا عله لإجتماعهما أي أن الله كما يحيط به علمًا يحيط كذلك علمًا بمحبوبه وهو لا يريد من محبوبه تدانيًا ولا قربًا أزيد من ذلك، وأن اجتماعه ومحبوبه في علم الله معنى أعم ممن قال بإحاطة الليل والنهار.

وهو يعبر عن هذا المعنى بأبيات من الشعر فيقول:

وقالو بعيد قلــت حــسبي ∴ معي في زمـــان لا يطيــق
تمر علـــيّ الـــشمس مثــل ∴ بــــه كـــلَّ يــــوم يــــستنير
فمن ليس بيني في المــسير ∴ سوى قطع يوم هــل يكـــون
وعلـــــم إلـــــه الخلــــق ∴ كفى ذا التـــداني مـــا أريــد

وهذا بالفعل معنى يصعب ربطه بفكرة الحب كما يصعب على أي

(١) م.س باب " القنوع " ص ١٢٠ .
(٢) م.س نفس الموضع ص ١٢٠ .

متكلم أو فيلسوف أو شاعر الإتيان بمثله.

ويبدو واضحًا أن لابن حزم موقفًا من إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة فهو كما يقول ابن حزم: " مع علو طبقته في الكلام وتمكنه وتحكمه في المعرفة تسبب إلى ما حرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بأن وضع له كتابًا في تفضيل التثليث علي التوحيد" (١) إلا أني استبعد ذلك من رجل من أهل التوحيد والعدل، وعلى أي حال فإن المجال لمناقشة هذا الاتهام لا يتسع له المقام.

(١) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٥٣ .

المبحث الخامس
الجـــانب النفســـــــــي

سبقت لي الإشارة (١) لوجود دلالة للبعد الميتافيزيقي والحسي والنفسي للحب، وذلك من خلال عبارة " طوق الحمامة في الألفة والألاف". فإذا ما انفردت الدراسات الفلسفية بالبعد الأول في محاولة لدراسة ماهية الحب، فإن الدراسات النفسية أولى بالبعدين الثاني والثالث أي دراسة سلوك المحبين والبحث عن البواعث النفسية التي تكمن من وراء هذا السلوك، فإذا كانت الألفة هي الحب علي الإطلاق فالألاف هم الأشخاص الذين تتجلي فيهم هذه الألفة، فلا شك أن لمن أراد دراسة ظاهرة الحب على الوجه الصحيح – كما فعل ابن حزم – أن يمسك بالوجهين معًا أعنى الفلسفي والنفسي، وإلا لما استطاع أن يفي بالموضوع، " وقد يعجب القارئ حين يرانا ندخل ابن حزم في عداد علماء النفس ولكنه لو قرأ بعين الاعتبار رسالة ابن حزم في الألفة والألاف لما تردد في إدراج تلك الرسالة ضمن المحاولات المبكرة في علم النفس " (٢).

ولقد برع ابن حزم من خلال تأملاته الدقيقة في تحليل السلوك الإنساني تجاه عاطفة الحب بما لم يسبقه إليه أحد كما برع في تحليل ووصف أدق ما يمكن أن يكمن بداخل النفس البشرية من مشاعر

(١) راجع " أسلوب ابن حزم " الفصل الأول من هذا البحث .
(٢) " ابن حزم الأندلسى " د/ زكريا إبراهيم ص ٢٣٢ ، انظر له كذلك " مشكلة الحب " ص ٢٦٥ .

وأحاسيس مرهفة بحيث فاقت دراسته النفسية دراسته الفلسفية بمراحل كثيرة، وكانت لها النصيب الأكبر في هذه الدراسة.

ويبدو الجانب النفسي واضحًا في تعريف ابن حزم للحب من أنه " استحسان روحاني وامتزاج نفساني " (١) أي أنه شئ في النفس – كما سيأتي بيانه – في " ماهية الحب "، ويبدو كذلك في حديثه عن علامات الحب والتي منها مثلًا: الانبساط الكثير الزائد، كما يوضح في باب " من أحب بالوصف " أن " للحكايات ونعت المحاسن، ووصف الأخبار تأثيرًا في النفس ظاهرًا "، وغير ذلك من الملاحظات النفسية الدقيقة الكثير والكثير.

ولابن حزم ومضات خاصة يتجلي فيها جمال الوصف ودقة الملاحظة معًا حيث يصف وجه المحب أثناء وجود الرقيب فيقول: " فلو رأيت الفتى المحب وقد تمازج الأسف البادي علي وجهه مع الغضب لرأيت عجبًا "(٢).

فابن حزم يصور توارد الأسف والغضب ووجودهما معا علي وجه المحب ويعبر عنهما "بالتمازج" وهو تصوير حسي يدل على مقدرته على ملاحظته ورؤياه علي الرغم من أنها رؤية مشاعر لا رؤية سلوك وتصويره في موضع آخر لحال المحبوب وسلوكه وقت اعتذار المحب عن ذنب وقع منه أوجب هجر المحبوب وعتابه ففي الوقت الذي يبدأ فيه المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل واستدعاء المغفرة نجد "المحبوب في كل

(١) " طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي ص ٩ .

(٢) م.س باب " الرقيب" ص ٦٠ .

ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفي، وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفيًا لتبسمه وذلك علامة الرضى " (١)، فهذا المشهد الذى يصوره ابن حزم يوحي للقارئ كأنه يراه.

ولم يكن ابن حزم دقيقًا في تحليله للسلوك الإنساني فحسب بل كان دقيقًا في ربط هذا السلوك بدلالته من ناحية وتدعيمه بالرأي الديني من ناحية أخرى، ومثال ذلك: مالاحظه ابن حزم من اختلاف سلوك المرأة عن عادتها الطبيعية إذا أحست برجل يسمعها أو يراها ويعبر عن ذلك بقوله: " وشئ أصفه لك تراه عيانًا، وهو إني ما رأيت قط إمرأة في مكان تحس أن رجلًا يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنيه، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك، ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحًا فيها ظاهرًا عليها لاخفاء به، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء، وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس في كل مكان " (٢) وابن حزم يحلل هذا السلوك ويرده لأسباب نفسية ترجع لطبيعة المرأة وهي علي حد تعبيره " التحيل لاستجلاب الهوى " وحرصها عليه ويستدل علي هذا التحليل بالآية الكريمة ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ... ﴾ (٤).ويؤكد

(١) م.س باب " الهجر " ص ٨٤ .

(٢) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٤٧ .

(٣) سورة النور آية رقم (٣٠) .

(٤) سورة النور آية رقم (٣١) .

علي صواب تحليله لسلوك النساء بأنه " لولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلي القلوب، ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوي، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغام "(١).

إلا أن لي مؤاخذة علي ابن حزم في تعميمه هذا لسلوك المرأة كما يبدو من قوله: " ما رأيت قط امرأة في مكان "، ولا يحق لي أن أعلن أنه يقصد المرأة غير الصالحة فقط لأنه يعود ويصرح " بأنه لم يحسن قط بأحد ظنًا في هذا الشأن مع غيرة شديدة ركبت فيه" (٢) فربما كان للبيئة والنشأة أثرًا في فكرته عن النساء فقد قمن بتربيته، وقد اطلع علي كثير من أسرارهن وهو مازال في عهد الصبي ورأي منهن ما يجعله يفقد الثقة فيهن، كما لا ننسى رؤية المجتمع للمرأة بالإضافة إلي الحياة المنفتحة في بلاد الأندلس في عهد ابن حزم،

وربما كان لنشأة ابن حزم هذه أثر في تفوقه في وصف مشاعر المرأة بطريقة قد تفوق في دقتها وصف المرأة ذاتها.

(١) " طوق الحمامة " ص ١٤٧ .

(٢) م.س باب " قبح المعصية " ص ١٥٣ .

المبحث السادس
الجـــــانب الاستبطاني

الاستبطان(١) أحد المناهج التي استخدمها ابن حزم جنبًا إلي جنب مع مناهج(٢) أخري "بالطوق " كالاستقراء والوصف والتحليل – كما سبقت إليه الإشارة – والاستبطان كما نعلم أحد المناهج المتبعة في الدراسات النفسية، ولذا فضلت وروده بعد الجانب النفسي مباشرة لما بينهما من صلة.

وإذا كان هذا المنهج قد ظهر في العصر الحديث فإن ابن حزم قد سبق إليه قبل عشرة قرون من الزمان ليؤكد في كل خطوة يخطوها مدى الأصالة والإبداع في عقل وفكر العلماء المسلمين. وهو يشير في بداية رسالته عن منهجه هذا فيقول " وكفاني إني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه وناسبة اليَّ"، والطريف في الأمر أن يستخدم ابن حزم هذا المنهج بأن جعل من نفسه نموذجا لدراسة قد يخجل منها الكثير كدراسة موضوع الحب لأن ذلك جعله يصرح بتجارب عاطفية خاضها هو بنفسه واستلهم منها حكمًا عامًا لما عليه نفوس البشر تجاه مواقف عاطفية ونفسية معينة، وهذه

(١) الاستبطان : " هو الدخول في باطن الشئ ، ويطلق علي ملاحظة النفس الفردية لذاتها لغاية نظرية، وهذه الغاية قسمان : الأول : معرفة النفس الفردية من جهة ماهي فردية ، والثاني : معرفة النفس الفردية من جهة ماهي نموذج للنفس البشرية العامة أو نموذج لكل نفس مهما يكن نوعها ، ويسمي هذا الاستبطان بالتأمل الباطني " . " المعجم الفلسفي " د/ جميل صليبا ص ٦٤.

(٢) راجع " منهج ابن حزم " الفصل الأول من هذا البحث .

النماذج ليست قليلة بكتاب " الطوق " إلا أني اقتصرت علي ذكر بعض منها أوضح فيها بعض تحليلاته الخاصة لظاهرة الحب، فمنها علي سبيل المثال: موضع يتحدث فيه ابن حزم عن البكاء أنه من علامات الحب وبتأملاته الخاصة وجد بكاء المحبين على صنفين وعبر عن ذلك بقوله: " ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم غزير الدمع هامل الشؤن تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جمود العين عديم الدمع وأنا منهم " (١) فهو بجانب تأملاته في علامات الحب وترقبه لأحوال المحبين وتصنيف بكاءهم يصف لنا حاله من خلال إجراء هذا التأمل على شخصه، ومن ثم الانتهاء إلي تعميم هذا الحكم علي عامة الناس.

وموضع آخر يؤكد فيه ابن حزم أن الحب الصادق الممكن من صميم الفؤاد لا يكون إلا مع الزمن الطويل وأن من كان حبه من نظرة واحدة فابن حزم لا يعتبره حبًا بل ضربًا من الشهوة، ويصف لنا تجربته حول هذا المعني فيقول: " ما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا وأخذى معه في كل جد وهزل، وكذلك أنا في السلو والتوقي، فما نسيت وداَ لي قط، وإن حنيني إلي كل عهد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء، وقد استراح من لم تكن هذه صفته، وما مللت شيئا قط بعد معرفتي به، ولا أسرعت إلي الأنس بشئ قط أول لقائي له، وما رغبت في الاستبدال إلي سبب من أسبابي مذ كنت لا أقول في الألاف والإخوان وحدهم، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك، وما انتفعت بعيش ولا فارقني

(١) " طوق الحمامة " باب " علامات الحب " ص ٢١ .

الاطراق والانفلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة " (١).

وتعليقا علي قول الإمام أقول: هذه صفات الأنقياء المخلصين.

***

كما أن هناك جوانب أخري هامة وردت " بالطوق " منها:

١- **الجانب الأدبي:** والذى جعل منه ابن حزم نسيجًا واحدًا في عرض نظريته في الحب حيث دعمها في كل مناسبة بأبيات من أشعاره، فيقول في مقدمة " الطوق " في تحديد منهجه: " وسأورد في رسالتي هذه أشعارًا قلتها فيما شاهدته " (٢)، والذي دعاني للفت النظر لأشعار ابن حزم الواردة بالطوق ليس لأنها قيلت في الحب فهذا شأن جميع الشعراء، ولكن لأن ابن حزم تفوق فيها بأمور منها:

(أ) التوظيف الدقيق لأشعاره مع أبواب " الطوق " بحيث نستطيع أن نجعل منها موضوعًا متكاملًا هو بعينه نظرية الحب كما رسمها ابن حزم ويكون باستطاعتنا أن نأخذ نفس عناوين " الطوق " عناوينًا لها.

(ب) التحدي بشعره رغم أنه لا يحب تكلف الشعراء في استعمالهم المجاز والتشبيهات وغيره من المحسنات اللغوية.

(جـ) الأصالة في أشعاره بخلاف غيره ممن كتبوا في الحب كأخوان الصفا وابن داود وابن الجوزي وابن القيم وغيرهم فقد اعتمدوا علي أشعار مستعارة من الغير.

(د) ورود أشعار تتسم بطابع الواقعية والعمق وعدم التكلف، ومنها "

---

(١) م.س باب " من لا يحب إلا مع المطاولة " ص ٣٠

(٢) م.س ص ٣.

أشعاره الفلسفية التي استطاع فيها أن يبلغ أعلى قمم التجريد الذهني " (١) وهو يصف محبوبه كقوله:

أمن عالم الأملاك أنت أم ∴ ابن لي فقد أزري بتمييزي
أرى هيئة إنسية غير ∴ إذا أعمل التفكير فالجرم
تبارك من سوى مذاهب ∴ علي أنك النور الأنيق
ولا شك عندي أنك الروح ∴ إلينا مثال في النفوس
عدمنا دليلًا في حدوثك ∴ نقيس عليه غير أنك
ولولا وقوع العين في الكون ∴ سوي أنك العقل الرفيع(٢)

وفي موضع آخر يذكر بعض أبيات من قصيدة له يسميها أصحابه قصيدة" الإدراك المتوهم " منها:

ترى كل ضد به ∴ فكيف تحد اختلاف
فيأ يها الجسم لا ذا ∴ ويا عرضًا ثابتًا غير
نقضت علينا وجوه ∴ فما هو مذ لحت

ولولا مخافة الإطالة لاستحق منا الأمر الوقوف طويلا لتأمل المعاني الفلسفة التي تستأثر بها هذه الأبيات.

٢- **الجانب الاجتماعي والثقافي:** حيث قدم ابن حزم من خلاله تحليلًا صافيًا للمجتمع الأندلسي فى عصره من حيث العادات وخاصة في

(١) " ابن حزم الأندلسي " د/ زكريا إبراهيم ص ١٠١.

(٢) " طوق الحمامة " ص ١٢ ، وفي هذا البيت يبدو تأثر ابن حزم بنظرية العقول والعقل الرفيع يعني به العقل الأول كما يصطلح عليه الفلاسفة ، وهو أول الموجودات .

مجال العلاقات العاطفية، كما ألقى الضوء علي مكانة المرأة وما نالته من حقوق وحرية سواء في الحب أو في اختيار الزوج، كما سوي بينها وبين الرجل مساواة تامة في الحقوق الإنسانية في التعليم وغيره، ويبدو معرفتها بالقراءة والكتابة كما نفهم من " باب المراسلة "، وظهرت في أكثر من صورة " معلمة، ومتعلمة، شاعرة، مثقفة، عفيفة، لا تطمع فيها الأبصار، وفية ذات خلال عالية، تستحق أن يبكيها الرجل، بل أن يموت أسفًا عليها إذا فارقها حية أو ميتة "(١).

٣- **الجانب التاريخي:** متمثلًا في ذكر الأحداث في مدينة الأندلس والمرية وشاطبة وجانب من تاريخ قرطبة، وسيرة الخلفاء، ومن أحب من المهديين، والحديث عن سيرته الشخصية وتعليمه وذكر مشايخه، فكان الطوق بمثابة وثيقة تاريخيه لحياته، ولا ننسى " أن ابن حزم الأندلسي هو الرائد الحقيقي لفن السيرة الذاتية في التاريخ العربي " (٢).

---

(١) " ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري " د/ عبد الحليم عويس ص ٣١٧.

(٢) م.س ص ٢٢٣ ، انظر كذلك " ابن حزم الأندلسي " د/ زكريا ابراهيم ص ٥٢.

المبحث الأول

نظرية ابن حزم في الحب الإنساني

هل باستطاعتنا أن نصف ما قدمه لنا ابن حزم من خلال " طوق الحمامة " وما انتهى إليه من وصفٍ ودراسةٍ وتحليلٍ للحب الإنساني بأنه نظرية جديدة في الحب ؟ وإذا كان الجواب عن ذلك بنعم، فهل الجديد فيما قدمه ابن حزم كان في " مادة الفكر " أم في " منهج الفكر" وأسلوبه الجديد في عرض أفكاره، وما استأثر به من آراء خاصة، أم أن هناك أمور أخرى غير ما ذكر ؟

الحق يقال أن ابن حزم كان مجددًا – ما في ذلك ريب – وهذا التجديد قد شمل الفكر مادة ومنهجًا حيث استطاع ابن حزم أن يطلق موضوع المحبة من عقاله بدراسة جديدة تختلف عن سابقيه ولاحقيه تتسم بجانب الواقعية بالاستيفاء والشمولية ووضوح الأفكار بجانب آرائه الخاصة إضافة إلى التجديد في الأسلوب وطريقة العرض " والحق أن " طوق الحمامة " ورسالة " مداواة النفوس" يصلحان نموذجًا واضح الدلالة علي علو رتبة ابن حزم النثرية، وقد اختار "الطوق" للتدليل علي سمو نثر ابن حزم كبار مؤرخي الأدب في الأندلس في العصر الحديث ولا ريب أن " طوق الحمامة " جدير بذلك فهو قطعه فنية اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرها في عصري الفتنة والطوائف " (١).

(١) " ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري " د/ عبد الحليم عويس ص ١٠٣.

أما الجديد في المنهج فيتضح في أمور كثيرة أولها: الدراسة الميدانية التي حفل بها " الطوق " والتي تضاهي اليوم أرقى الدراسات والبحوث الأكاديمية في مجال علم النفس وغيره سبق بها ابن حزم منذ ما يقرب من ألف عام، حيث جعل من شرائح المجتمع نموذجًا لدراسته وتحليله وهو منهج يلائم – دون ما شك – الموضوع وملائم كذلك لرأي ابن حزم في ماهية الحب حيث يري أن حقيقته لا تدرك إلا بالمعاناة، وإذا كان الأمر كذلك فالأولى – كما فعل – أن يتتبع حقيقته من أناس عاشوا ذلك الحب – وهو واحد منهم – شريطة المعاناة والمكابدة. والحق أن ابن حزم لم " يستند في أحكامه إلى آراء نظرية خالصة أو نظريات فلسفية معروفة بل هو يستمد أحكامه من تجاربه وتجارب الآخرين دون التعرض لذكر أسماء أصحابها اللهم إلا من لم يكن هناك ضرر من تسميته، وهو يصرف النظر عن أخبار الأعراب والمتقدمين لاعتقاده بأن أساليبهم في الحياة والحب قد كانت مختلفة تمامًا عن أساليب أهل عصره، ولاقتناعه في الوقت نفسه بأنه لابد له من أن يأتي بجديد، بدلًا من أن يقتصر على ترديد أحاديث السابقين "(١).

وثمة أمر آخر يعكس نبوغ ابن حزم في عموم منهجه وهو دقة التبويب والترتيب المنطقي للأفكار أضف إلي ذلك العبقرية في تصور الموضوع، حيث قسم ابن حزم نظريته في الحب إلى ثلاثة أقسام رئيسية كبرى هي في تقديري حصر دقيق لكل خصائص الحب، فالقسم الأول تحدث فيه عن " أصول الحب "، والقسم الثاني عن " أعراض الحب

(١) " مشكلة الحب " د/ زكريا إبراهيم ص ٢٦٦ ، وله " ابن حزم الأندلسي " ص ٢٣٤.

وصفاته " والقسم الثالث عن " آفات الحب "، ثم خصص جانبًا هامًا لرأي الشرع وآخرًا في فضل التعفف في بابين أتم بهما هذا البناء المحكم لكتابه " الطوق ".

وهذا التصور الدقيق لموضوع الحب الإنساني من حيث النظر فيه لأصوله وأعراضه... الخ لم يتوفر في أي من المؤلفات التي بين أيدينا الآن وكتبت عن الحب وإذا ما قارناه بمن سبقه وتواتر إلينا تأثر ابن حزم به وهو تحديدا كتاب " الزهرة " لأبي بكر بن داوود الظاهري، وهو أيضا المرجع الوحيد الذى ذكر " بالطوق " نجد أمورًا كثيرة تفوق فيها " الطوق " علي كتاب " الزهرة " منها علي سبيل المثال: هذا التقسيم المشار إليه منذ قليل أما كتاب " الزهرة" فقد جاءت أبوابه منفصلة ومستقلة ولم يربط بينها تلك الوحدة الرابطة التي توفرت " للطوق " من حيث انتماء كل باب إلى قسم بعينه فنجده يتحدث تارة عن الأسباب وتارة عن الآفات، وتارة عن الأعراض من غير ترتيب، فتحدث مثلا عن " النظر " في الباب الأول وهو من أسباب الحب ثم تناول بعد ذلك الكلام في ماهية الحب في حين كان الأولى أن يبدأ بالماهية لا بالأسباب. فلم يراع التسلسل المنطقي في العرض أو الترتيب المنهجي في تناول الموضوع كما فعل ابن حزم.

وابن حزم إن كان قد اتفق مع ابن داوود في عدد من رؤوس القضايا المتعلقة بالحب فالفضل في ذلك لا يرجع لابن داوود، لأن موضوعًا كموضوع الحب لابد أن يفرض معطياته تلقائيا وفقًا لما عاينه الناس من وصل وهجر وبين وسلو وغير ذلك، كما أن الدراسة التي قدمها الاثنان تدل دلالة واضحة علي أن لكلٍ منهجه، فعادة ابن داوود مثلا أن يأتي

بالفكرة في أول الباب موجزة ثم يلحقها بما يناسبها من أشعار هي ليست من أشعاره، وقد تمتزج الحقيقة فيها بالخيال " فكتاب ابن داود مجموعة رائعة من شعر الغزل لا تنتمي إلى عصره وإنما تعود إلى شعراء عاشوا قبله بقرن أو قرنين من الزمان صنفها علي أبواب ارتضاها دون أن تعكس في شئ نبض المجتمع حيث يعيش الحب واقعًا أما كتاب " طوق الحمامة " فلقطات واقعية لحركة مؤلفة والذين حوله في مجالات العاطفة حية ودافئة وتتضح إنسانية في كل جوانبها"(١) هذا بالإضافة إلي أنه لم يرد " بالطوق " ما يدل علي تأثر ابن حزم بكتاب ابن داوود أكثر من أنه رآه واطلع عليه، وما أورده ابن حزم عن ابن داوود في ماهية الحب أورده على سبيل المعارضة والنقد لا على سبيل التأييد – كما سيأتي في الكلام عن ماهية الحب.

أما بقية الرسائل التي كتبت عن الحب وسبقت ابن حزم كرسالة " الجاحظ " مثلا عن "العشق والنساء " فهي لا ترقي لأن توضع في مصاف الدراسات الجادة الممنهجة التي كتبت عن الحب وبالتالي لا نستطيع أن نقول أن للجاحظ نظرية في الحب فالرسالة قصيرة جدًا لا تتعدى عشر صفحات وتفتقر إلى العناوين كما تفتقر إلى التقسيم الجيد والتبويب المنهجـــي كما " للطوق " فجاءت غامضة وكأنك تقرأ في مجـــهول فكان من عادتـــه أن يصدر كلامه بجملة " فصل منه " دون توضيح أو عنونه كاملة إلا في بعض الفصول القليلة جدًا وجاءت بلغة جافة ومعاني في حاجة إلى بيان، وكل فصول الرسالة على قلتها قصيرة

---

(١) " دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة " د/ الطاهر أحمد مكي ص ٢٨٦ ، وفيه عقد د/ مكي مقارنة شيقة بين " الطوق" وبين من سبقه ومن أتي بعده ممن كتب في الحب (فليراجع) .

جدًا ولا تخرج منها بفكرة متكاملة عن الحب، وأحيانًا تأخذنا بعيدًا عن الموضوع الأصلي، ومع أننا لا ننكر على الجاحظ أنه استهل موضوعه استهلالًا حسنًا فتحدث في الفصل الأول من الرسالة عن ماهية العشق وأسبابه وأنواعه، إلا أنه تحدث بعد ذلك عن أمور أخرى لا علاقة لها بالموضوع فتحدث عن الغناء مثلًا وأثره إذا كان من الوجوه الحسان، وأن المرأة أفضل من الرجل في أمور، وفصل في ذكر الولد، وفي الفصل الذي يليه اختصاص الله المرأة بأن خلق منها ولدًا من غير ذكر، وفصل في القرابات ثم في الفصل الرابع عشر تحدث ثانيًا عن العشق بفقرة لا تغني ولا تثمن من جوع فذكر (١) أن رجلين من الناس لا يعشقان عشق الأعراب أحدهما: الفقير، والثاني: الملك الضخم الشأن، وهكذا. ثم اختتم الرسالة برأي أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء فذكر ما يقرب من عشرين صفة لما ينبغي أن تكون عليه المرأة الجميلة مما يتعذر وجودها في العالم السفلي وكأنه يصف حوريات الجنة، والرسالة عامة " يغلب علي الشكل الذى جاءت فيه الطابع الإنشائي والملاحظات العجلة لا يقف معها الجاحظ عند أية فكرة مستغرقًا أو معللًا ولا يلتقط لها مما حوله شاهدًا علي جاري عادته إلا في حالة واحدة... ولا نقول أن ابن حزم عرفها أو أفاد منها لأن المنهج عند كليهما مختلف، والنظرة متباينة، ولا نلمح لها في " طوق الحمامة " أثرًا (٢).

أما إخوان الصفا في رسالتهم عن " ماهية العشق " وإن ذهب البعض إلى " القول بأن فلسفتهم أعانت ابن حزم في تكوين نظرته

(١) " رسالة الجاحظ في " العشق والنساء " ص ١٥٤ .

(٢) " دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة " د/ الطاهر أحمد مكي ص ٢٧٤ .

الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسيرها " (١) لا ننسى في الوقت ذاته تأثر الإخوان أنفسهم بالفلسفة الإغريقية وكذلك بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة حيث كان لهما أكبر الأثر في فكرهم، وكانت أقوال الحكماء والأطباء اليونانيين هي مادة بحثهم في ماهية الحب فما ارتضوه من أقوالهم قبلوه وبنوا عليه أقوالهم، واكتفوا بالترجيح دون تقديم الجديد منهم، وليس هم وحدهم الذين تأثروا بالفكر الإغريقي فيما يختص بماهية الحب بالذات فلا أبالغ لو قلت أن الغالبية العظمى ممن تحدثوا عن الحب لم يغفلوا رأي أفلاطون مثلًا أو جالينوس أو أفليمون أو غيرهم من الفلاسفة القدماء وابن حزم واحد منهم إلا أنه لم يقتصر علي المعارف النظرية فحسب بل توج دراسته بالتجربة سواء تجربته الشخصية أو تجارب الناس فكان " الطوق " بمثابة " دراسة تحليلية عميقة للحب نبعت من صميم خبرته المعاشة وصدرت عن حكمه عملية طويلة الأمـد" (٢) استند فيها بجانب النظر والتجربة إلى الأصـول الدينية كما يبدو في كلامه عن ماهـية الحـب، ومواضـع كثيرة أخـرى وردت "بالطوق"، " ولم يكن يقتصر على ملاحظة أحوال المحبين ووصف عوارضهم وآفاتهم وإنما كان يحاول أيضا الاهتداء إلى البواعث النفسية التي تكمن من وراء أفعالهم وشتى مظاهر سلوكهم"(٣) والشواهد علي ذلك "بالطوق" كثيرة، كما حرص علي فهم الأمور حوله بنفسه وبنوع من الاستقلالية في تفكيره ولقد نص على ذلك في مقدمة كتابه بقوله: "والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك

(١) م.س ص ٢٩٢ .

(٢) " ابن حزم الأندلسي " المفكر الموسوعي الظاهري د/ زكريا إبراهيم ص ٧٥ .

(٣) م.س ص ٨٠ .

والاقتصار علي ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواى ولا أتحلى بحلى مستعار " (١).

أما رسالة ابن سينا في " ماهية العشق " فهي أيضًا تناولت الأمر من جانبه النظري المتصل بالأرواح وتآلفها، وعشق الكائنات غير الحية، وأثر الأفلاك في نفوس البشر، واشتياق النفس للاتحاد بالخير المطلق... الخ فهي أيضًا رؤية أفلاطونية بعيدة عن التصور الإسلامي للمحبة كما أنها لا تستغرق جهدًا ولا تدخر وسعًا في البحث عن الحب الإنساني من جميع جوانبه وأعراضه وظواهره إلى آخر خصائص الحب الأخرى والتي استفاض فيها ابن حزم في كتابه " طوق الحمامة " حيث جاءت دراسته شاملة فياضة محاطة بالنسيج النفسي والاجتماعي والفلسفي بجانب رؤيته الدينية والأخلاقية بعيدا عن عالم الخيال أو التنجيم.

ولا ننسى ما حظي به ابن حزم من سمات شخصية وعلمية وبيئية أمكنته من الإتيان دائمًا بالجديد ليس نظريته في الحب فحسب بل نظريته كذلك في المعرفة، وفي تاريخ المذاهب والأديان وجهت إليه أنظار الباحثين مستشرقين وغيرهم وكتابه " الطوق " حظي بما لم يحظ به غيره من الاهتمام والدراسة والترجمة والشهرة فهو كما يري الباحثون " نظرية أدبية فلسفية في الحب العذري مقسمة علي ثلاثين بابا.... ورسالة محكمة البناء من حيث التبويب كتبت في أسلوب حي مجرد من التزويق اللفظي أو التصنع " (٢).

---

(١) " طوق الحمامة لابن حزم الظاهري ص ٣ .

(٢) " ابن حزم الأندلسى وجهوده في البحث التاريخي والحضاري" د/ عبد الحليم عويس ص١٠٣ .

المبحث الثاني
علاقات الحب الواردة بكتاب " طوْق الحمامة "

تمهيد:

لاشك أن الحب مرتبط بكل مناحي الحياة فهو سر لاجتماع مـــامن شأنه أن يجتمع، وهو أيضًا علة الافتراق ليس فقط بين الناس ولكن كـــل ما في الكون خاضع لفعله، فإما تمازجًا واتصالًا ومجانسة، وإمـــا تباينًـــا وانفصالًا ومنافرة، هو بحق شيطان – كما تصفه ديوتيم(١) – لكنه شيطان مولع بالجمال، ليس لدية حيلة أو اختيار، إلا أنه يخلق فينا ألوانًـــا مـــن الإبداع، كائن يحيا بحياتنا، يتألم بألمنا وينعم بنعيمنا، ويمـــرض ويمـــوت كما نمرض ونموت، وهو أيـــضا يفـــسر ســـلوكنا وأخلاقنـــا منـــضبط بانضباطها منحرف بانحرافها، قادر علي أن يخلق فينا الغيـــرة والقلـــق والمرض والجنون وقادر أيضا علي سكون النفس ورضاها، وليد للفطرة وقرين للغريزة أحيانًا، هو سر الايقاع الذى يسري في جنبـــات الكـــون، ذلك الإيقاع الذى تسمع صداه في قلب كل محب حينمـــا تـــشرف نفـــسه بالحب الذى هو أصل لكل خلق جميل، وهو أيضا ســـر الخلـــق وســـر طاعتنا لله فحين خلقنا، خلقنا بمحبته وأمرنا بعبادته لأنها تقربنا منه فمـــن أخلص فيها وجد ذلك الحب الذى نتحرر لأجله من عبودية ما ومن سواه، حتى الموت فإن منا من لا يخشاه أملًا في رؤية المبحوب الأعظم وواهب

---

(١) ديوتيم : إحدى شخصيات " مأدبة " أفلاطون والتي درا بينها وبين سقراط حواراً طويلاً عن الحب : طبيعته وحقيقته وأسطورة مولده ... الخ أنظر " المأدبة ، أو فى الحب لأفلاطون " د/ على سامي النشار وآخرون ص ٧٣ .

كل محبوب.

وحول هذه المعاني يدور هذا المبحث أعنى ارتباط الحب بكثير من الأمور وعلاقته بها وذلك من خلال " الطوق "، وابن حزم لم يغفل هـذا الجانب الهام في دراسته لقضية الحب الإنساني فتحدث عن كثير من هذه العلاقات (١) بعضها ذات طابع فلسفى كعلاقة الحب بالحياة والزمن والجمال والحرية والإرادة... الخ، وبعضها ذات طابع إنساني كعلاقة الحب بالغيرة والفطرة والشهوة والقلق... إلخ وبعضها ذات طابع ديني وأخلاقي كعلاقة الحب بالإيمان والفضيلة، ولم يشأ ابن حزم أن يفرد بابًا أو أكثر لهذه العلاقات – كما فعل في الجانبين الديني والأخلاقي – بل ذكرها عبر صفحات " الطوق " بحسب المناسبة والباب الذي يستدعي ذكر إحداها إلا أني وجدت من باب إتمام الفائدة ضرورة توضيح وتجميع هذه العلاقات الهامة للحب بأن أفرد لها مبحثًا خاصًا يبرز هذا العمل الجاد الذي يحسب لفقيه الأندلس.

وهذه العلاقات كما وردت " بالطوق " تنقسم إلى أربعة أقسام:

أولًا: علاقات ذات طابع فلسفي.

ثانيًا: علاقات ذات طابع إنساني " نفسي ".

ثالثًا: علاقات ذات طابع ديني.

رابعًا: علاقات ذات طابع أخلاقي.

والقسمان الأخيران قد تمت دراستهما في " الفصل الثاني " من هذا

---

(١) العلاقة : شيء بسببه يستصحب الأول الثاني كالعلية والتضايف " التعريفات " السيد الشريف الجرجاني ص١٦٢ .

البحث الخاص بالجوانب التي اشتمل عليها كتـــاب " الطـــوق " وهمـــا: الجانب الديني، والجانب الأخلاقي.

(أولا: علاقات ذات طابع فلسفى)

المطلب الأول: علاقة الحب بالحياة

إن أول ما تجدر الإشارة إليه في العلاقة بين الحـــب وغيـــره مـــن الأمور هو العلاقة بين الحب والحياة، أو بمعنى آخر الحـــب والوجـــود البشري بل ووجود كل موجود وعلاقته بالآخر كائنًا من كان جمـــادًا أم نباتًا أم حيوانًا، فليس ثمة وجود بدون حب، وليس ثمة حب بدون وجود.

وذلكم فقهينا الشاب ابن حزم يقرر تلك العلاقة، والتي تنـــشأ مـــن جراء وصل المحبوب وما يمكن أن يحدثه في حياة الشخص المحب مـــن مباهج لا تدانيها بهجة، ويشرح ذلك في عبارات لا تقل بهجة عن بهجـــة الوصل فيقول: " ومن وجوه العشق: الوصل، وهو حظ رفيـــع، ومرتبـــة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السنى، والسرور الدائم، ورحمة من الله عظيمة، ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره لقلنا إن وصل المحبوب هـــو الصفاء الذى لا كدر فيه، والفرح الذى لا شائبة ولا حزن معه، وكمـــال الأماني، ومنتهى الأراجي، ولقد جربت اللذات علي تصرفها، وأدركـــت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان، ولا للمال المـــستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن بعـــد الخـــوف، ولا التروح علي المال من الموقع في النفس ما للوصل، لاسيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوي، ويتوقد لهيـــب الـــشوق، وتتصرم نار الرجاء، وما إصحاء النبات بعد غب القطـــر، ولا إشـــراق

الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج (١)، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر، بأحسن من وصل حبيب قد رضيت أخلاقه وحمدت غرائزه، وتقابلت في الحسن أوصافه "(٢).

ويبدو أن ابن حزم قد وقف بهذه الفكرة عند جانبها العاطفي وحده دون أن يبين كيف يقوم الحب بهذا الدور الحيوي الذى لا بد منه لاستمرارية الحياة، إلا أن عبارة استوقفتني لا أدرك تحديدًا ماذا يقصد بها ابن حزم وهي عبارة " الحياة المجددة " (٣) فتجدد الحياة يعني مسبوقية الفناء أو العدم ويعني أيضا أن هذا السبق وهذا التجدد يبدوان وكأنهما في ملاحقة مستمرة إما مع كل حالة حب تنشأ بين اثنين أو بين اثنين بعينهما تتجدد معهما الحياة طالما أنهما ما زالا يعيشان حالة من حالات الحب، أو أن ابن حزم يقصد بها أثر الحب ومردوده النفسي فقط ولا يقصد أبعد من ذلك، وعلى أي حال فإن هذه العبارة تذكرنا بجملة ألقاها أجاتون يصف طبيعة الحب بأنه " ذلك الفرار الذي يفر به من الشيخوخة ونرى أنه أمر طبيعي أن يمقت الحب الشيخوخة بل وألا

(١) السجسج : يوم سجسج لا حر فيه ولا برد ، وهواء سجسج معتدل طيب .

(٢) " طوق الحمامة " باب " الوصل " ص ٧١ .

(٣) " منذ نشر بتروف : المستشرق الروسي ، النص العربي لطوق الحمامة ، عام ١٩١٤ ، وتوالت ترجماته، وعامة المستشرقين يقفون عند هذه الجملة لابن حزم : " الحياة المجددة " فقد كانت العنوان الذي أعطاه الشاعر الإيطالي دانتي Dante (١٢٢٥-١٣٢١م) لأهم أعماله الأدبية " الحياة المجددة Lavita Nova، أكان مجرد التقاء فكرين عبقريين أم أن الأديب الايطالي عرف كتاب الطوق ؟ سؤال في انتظار من يجب عليه " انظر هامش تحقيق " الطوق " للدكتور/ الطاهر مكي .

يقترب منها ولو طالت المسافة بينهما وهو علي العكس يتعلق بالــشباب ويتخذ منه صحبة دائمة " (١). إلا أن أجاتون أيضا لم يوضح – مثله في ذلك مثل ابن حزم – كيف ينتصر الحب علي الشيخوخة بحيــث يحقــق الشباب الدائم، أما ديوتيم فقد أجابت عن ذلك، وفي الوقت ذاته نجد فكرة ابن حزم عن الحياة المجددة تتلاقى بفكرة ديوتيم في أن هدف الحب هــو الرغبة في الخلود وتوضح ذلك لسقراط فتقول: " ألم تلاحظ ماهو جــدير بالانتباه في الميول التي تكون عليها جميع الحيوانات عندما تستولى عليها الرغبة في التكاثر إنها جميعًا سواء ما يمشى منها أو ما يطيــر تكــون مريضة بحالات الحب، أولًا فيما يختص باجتماعها المتبــادل، ثــم فيمــا يختص بتربية ذريتها، وهي علي استعداد لأن تحارب من أجلها الأضعف ضد الأقوى، وأن تضحي بحياتها، متحملة هي نفسها آلام الجوع لتضمن لها الغذاء، ومضحية بنفسها علي أية صورة " (٢) وتستطرد ديوتيم بعــد ذلك " إن الطبيعة الفانية تحاول بوسائلها أن تستمر وأن تكــون خالــدة، والوسيلة الوحيدة التي في حوزتها لهذا الغرض هي أن تنــتج وجــودًا، بحيث تترك باستمرار محل الكائن القديم كائنًا جديدًا يتميز عنه"(٣). وهنا نجد أن التحليل الذى قدمته ديوتيم لتحقيق فكرة الخلود هو في واقع الأمر تحليل بيولوجي يجعل العلاقة بين الحب والتكاثر علاقة لزومية، وخلطت بين حالات الحب والرغبة في التكاثر في حين أن الحب في واقع أمــره

---

(١) " المأدبة " لأفلاطون د/ علي سامي النشار وآخرون ص ٥٣ وأجاتون هو أحد شخصيات هذه المحاورة الشهيرة في الحب .

(٢) م.س ص ٨٧.

(٣) م.س ص ٨٨.

يسعى للخلود لا من حيث التوالد وإنما خلود الحب نفسه وخلـود الأرواح المتحابة ومقدرة المحبين علي أن يخلقوا الحب في قلوب غيـرهم مـن الناس، فإذا قلنا: أن فعل الحب وفعل التكاثر أمر واحد، ما بقـى اثنـان متحابان على وجه الأرض طالما أنهما لا ينجبان والواقع يـشهد بعكـس ذلك، كما أن الحب الذى تحدثت عنه ديوتيم يختص بعاطفة الأمومة بمـا تشمله من التربية والمحاربة من أجل الصغار... الخ وليس كـل حـب ناشئًا بالضرورة عن تلك العاطفة فهناك صور كثيرة للحب تسعي للخلود الأمومة واحدة منها، وعلى ذلك فالخلود الذى يبغيه ابن حزم غير الخلود الذى وضحته ديوتيم وأعتقد أن وقوف ابن حزم في فكرته عنـد جابنهـا العاطفي هو الأليق بفكرة خلود الحب بمعناه الميتافيزيقي فقط من جملـة المعاني الأخرى للحب " ولا شك أن ابن حزم حين يخلع علي الوصل كل هذه الأهمية، فإنه يعبر عن إيمانه العميق بقيمة تلك التجربة الميتافيزيقية التي يحققها الحب حين يخرج بالذات من قوقعتها المظلمة لكي يقذف بها إلى عالم " الآخر"، أو بالأحرى إلى عالم "الأنت" إن صح هذا التعبير"(١).

وكما أن الحب قادر علي خلق الحياة المجددة ربما كان سببًا لموت صاحبه ويفسر ابن حزم ذلك المعنى بأنه " ربما تزايد الأمر ورق الطبع وعظم الإشفاق فكان سببًا للموت ومفارقة الدنيا وقد جاء في الآثار: مـن عشق فعف فمات فهو شهيد " (٢). وابن حزم يضرب الأمثلة على ذلـك من واقع أناس عايشهم وعايشوه، والذى نفهمه من عبارته أن الحب قـد

---

(١) " مشكلة الحب " د/ ذكريا ابراهيم ص ٢٧٦.

(٢) " طوق الحمامة " باب " الموت " ص ١٣٧.

يكون سببًا للفناء، وعما قليل كان الحب سببًا للوجود والخلود بمعنـــى أن الحب عنده هو الحياة والفناء معًا، فكيف يصبح الحب خيـــرًا فـــي أحـــد جوانبه، وشرًا في جانب آخر ؟. هنا تتلاقي الفكرة للمرة الثانية بالفلـــسفة الإغريقية عامة وبالمأدبة بشكل خاص إلا أنها تلتقي هنا بـــشكل أوضـــح مما بيناه منذ قليل، فالفكرة ذات بعد فلسفي يدور في إطاره الحـــب بـــين الخلود والفناء من ناحية والحب بين الخير والشر من ناحية أخـــرى، ولا أعتقد أن أحدًا من فلاسفة المسلمين كان له السبق في طرح أو معالجـــة هذه المشكلة، ويبدو أننا سوف ندين لديوتيم بالفضل كما دان لها ســـقراط من قبل في فهم طبيعة الحب ويبدو أنها بلغت من الذكاء لأن تجعل الحب كائنًا متوسطا لتهرب من هذا المأزق فتقول لسقراط: " فلا تظن إذن، أن ماليس جميلا هو بالضرورة قبيح، ولا تزعم أكثر من ذلك، ان ما لـــيس خيرًا يكون شرًا، وهكذا هي الحال بالنسبة للحب، إنه ليس خيرا ولـــيس جميلًا أيضا وليس هناك داع لأن تتصور أنه يجب أن يكون قبيحًا وخبيثًا إنه وسط بين الواحد والآخر... إنه وسط بين الخالد والفاني" (١). وفهـــم ديوتيم لطبيعة الحب هو بعينه تعريف أفلاطون حينما سئل عـــن ماهيـــة الحب فقال: ما أدري ما الهوى، غير أني أعلم أنه جنون إلهي لا محمود ولا مذموم.

المطلب الثانى: علاقة الحب بالزمن (أطوار الحب)

الحب كالكائن الحي يولد صغيرًا، وينمو ثم يكتمل ليصل لمرحلـــة النضج، ويحيا بقدر ما تسمح له المشيئة بذلك ثم لم يلبث أن يلقى حتفـــه

---

(١) " المأدبة ، أوفى الحب لأفلاطون " د/ علي سامي النشار وآخرون ص ٧٠ ، ٧٣

فيقابل الموت – شأنه في ذلك شأن كل كائن حي – وهذا الموت إما موت الحب نفسه وإما أن يصطدم الحب بموت أحد المحبين. والحب لم يشأ أن يقطع هذه الرحلة عبر أطواره نشأة وحياة وممات مجردًا عن الزمان، ولم يخل شكل من أشكال الحب أو يستطع البقاء خارج مقولة الزمان حتى الصوفي في خلوته لم يكد يصل لدرجة عليا من درجات الكشف دون أن يتطلب ذلك منه زمنًا طويلًا، وذلك العاشق الذي فقد حبيبه لم يكن بأقل حاجة إلى الزمن حتى ينسى أنه كان في حالة حب مضت.

وابن حزم يعرض لفكرة الزمن في تحليله لعاطفة الحب وتكاد تكون هذه الفكرة تمسك بأطراف نظريته في الحب عبر صفحات " الطوق " متدرجًا بها منذ النشأة مرورًا بما يدعم حياة هذا الكائن ويضمن له السلامة، وانتهاءًا بموته سواء أكان بالفراق والبين أم بالسلو أم بالموت... الخ، كما يعقد علاقة قوية بين الزمن قصرًا وطولًا وشدة الحب وصحته ومن ثم دوامة أو عدم اعتباره حبًا من الأساس أو ما يدعو إلى فشله أو نقصانه، ويفرق في الوقت نفسه وبشكل حاسم بين الحب الجاد والشهوة بناءًا علي فكرة الزمن أيضًا.

وبيان ذلك: أن ابن حزم بعد أن انتهي من الكلام في ماهية الحب وعلاماته أخذ يتتبع أسباب نشأته علي وجه العموم سواء ما كان منها له علاقة بفكرة الزمن، وما ليس كذلك، فيري أن للحب أمور كثيرة تشترك مجتمعة في طور نشأته قد تكون أسبابًا أو عللًا، ويذكر في ذلك أمورًا كثيرة تتراوح بين السبب والعلة والمدخل، والذي يهمنا منها الآن وله علاقة بفكرة الزمن، أسباب ثلاث فقط أوقف ابن حزم لكل سبب منها بابًا.

السبب **الأول:** من أحب في النوم.

السبب **الثاني:** من أحب من نظرة واحدة.

السبب **الثالث:** من أحب مع المطاولة.

وابن حزم يعقد مقارنة بين الحب من نظرة واحدة أي الذي يقطع زمنا قصيرًا جدًا وبين الحب مع المطاولة أي الذى يستلزم زمنًا طويلًا، فيري أن من " أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل علي قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو وشاهد الظرافة والملل، وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نموًا أسرعها فناء، وأبطؤها حدوثًا أبطؤها نفاذًا(١). أي أن عامل الزمن تمتد أهميته عند ابن حزم ليس فقط داخل البناء العاطفي وحده بل يشمل كذلك كل شئ وكل عمل يتمنى الإنسان له الدوام ويستنكر بشدة من يدعي الحب من نظرة واحدة ويعتبره ضربًا من الشهوة فيقول: " وإني لأطيل العجب من كل من يدعي أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضربًا من الشهوة، وأما أن يكون في ظنى متمكنًا من صميم الفؤاد نافذًا في حجاب القلب فما أقدر ذلك، ومالصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا وأخذي معه في كل جد وهزل " (٢)، ولذا فهو يري أن الحب الصحيح الصادق إنما ينشأ ويتأكد مع طول الزمن وامتداد العشرة ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر فيقول: " ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافته وكثير المشاهدة ومتمادي

(١) " طوق الحمامة " لا بن حزم باب " من أحب من نظرة واحدة " ص ٢٨.

(٢) م.س باب " من لا يحب إلا مع المطاولة " ص ٣٠ .

الأنس، وهذا الذي يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالي، فما دخل عسيرًا لم يخرج يسيرًا، وهذا مذهبي " (١). وهكذا يقسم ابن حزم صنوف البشر فبعد أن تحدث عن الملول قليل الصبر يتحدث هنا عن شريحة أخري من الناس تتسم بطابع الجد والثبات فكما تحدث عن الدور الثانوي للنظرة يتحدث هنا عن دور النفس في سكونها واستئناسها بشخص الحبيب والاتصال الروحاني بينهما الذي من شأنه أن يخلق حبًا حقيقيًا فيري كيف ينشأ الحب عن الاستقرار النفسي وكيف يخلق هذا الحب جوًا من السكينة والأنس يتسم بالدوام والثبات فيصبح من العسير زعزعته أو القضاء عليه. واعتقد أن ابن حزم يستند في تحليله السابق علي قوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً... ﴾" (٢) وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... ﴾ (٣).

أما من أحب في منامه فابن حزم يري أن الرؤية أبعد ما يمكن أن تكون من أسباب الحب وإنما ذكره ليجري كلامه علي نسق وأنه لولا شاهده لما ذكره لغرابته، ويحلل ذلك بأنه" من حديث النفس وأضغاثها، وداخل في باب التمني وتخيل الفكر"(٤). وعلي أى حال فإن المدة الزمنية التي قطعها الرائى في منامه والذي اطلع فيها علي شخص المحبوب رغم نسبيتها وقصرها إلا أني أراها قد كان لها حظ وإن لم يكن وافرًا من

(١) م.س. نفس الموضع ص ٢٩.

(٢) سورة الروم آية رقم (٢١) .

(٣) سورة الأعراف آية رقم (١٨٩) .

(٤) " طوق الحمامة " باب " من أحب في النوم " ص ٢٤.

الزمان.

هذا عن دور الزمن في نشأة الحب عند ابن حزم، أمـــا عـــن دور الزمن في حياة الحب فهو أكثر جلاءًا عن دوره في نشأته فابن حزم يري أن المحب بعد أن تتأكد المحبة من نفسه فإنه لابد مـــن أن يجـــد وســـيلة للتعبير عن ذلك الحب ولا بد أيضًا من أن يخطو خطوات تضمن لحبـــه الدوام، وهذه الخطوات يعتبرها ابن حزم مداخل للوصول للحبيب منهـــا: التعريض بالقول، والإشارة بالعين، والمراسلة، والسفير فيقول: " ولابـــد لكل مطلوب من مدخل إليه وسبب يتوصل به نحوه، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليم الأول جل ثناؤه فأول ما يستعمل طلاب الوصـــل أو أهل المحبة في كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريض بـــالقول، إمـــا بإنشاد شعر، أو بإرسال مثل، أو تعميه بيت، أو طرح لغـــز، أو تـــسليط كلام " (١) وابن حزم يري أنه إذا وقع القبول والموافقة يتلو ذلك الإشارة بلحظ بالعين " وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمـــود ويبلـــغ المبلـــغ العجيب، ويقطع به ويتواصل ويوعد ويهدد، وينتهـــر ويبـــسط، ويـــؤمر وينهي، وتضرب به الوعود، وينبه علي الرقيـــب، ويـــضحك ويحـــزن، ويسأل ويجاب ويمنع ويعطي " (٢)، وابن حزم هنا يصدر عـــن عقليـــة سيكلوجية بعيدة الأغوار في فهمها وتحليلهـــا للغـــة العيـــون وإشـــارات الألحاظ وأسبق بكثير عن دراسات نفسية لمحللين معاصرين غـــربيين أو عرب كتبوا عن سيكلوجية النظرة إلا أن المقام هنا لا يتسع لعقد مقارنـــة

(١) م.س. باب " التعريض بالقول " ص ٣٧ .

(٢) م.س. باب " الاشارة بالعين " ص ٣٩ .

بين هذه الدراسات.

ويتواصل ابن حزم مع الزمن، ومع المحبـين أيـضًا فيـأتي دور المراسلة فيقول: " ثم يتلو ذلك إذا امتزجـا (١) المراسـلة بالكتـب" (٢) ويصف ابن حزم أساليب المحبين في التراسل كمـا يـصف الرسـائل وأشكالها، ويحدثنا عن الأثر النفسي الذي تحدثه هذه الرسائل في نفـوس المحبين، وكيف أنها تقوم مقام الرؤية بل إن للنظر إليها سـرور يعـدل اللقاء، وهذه الرسائل تدل علي أن المرأة كانت تجيد الكتابـة فـي ذلـك الوقت " ويقع في الحب بعد هذا، بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس إدخال السفير " (٣) ويستفيض ابن حزم في وصف هذا السفير وهيئته ومهنتـه ومهمته، ومن يصلح ومن لا يصلح لأن يكون سفيرًا... الخ ولكـن مـن بين هؤلاء سفير رقيق يقول عنه ابن حزم " وإني لأعرف مـن كانـت الرسول بينهما حمامة مؤدبة، ويعقد الكتاب في جناحها " (٤).

أما عن موت الحب فلابد له أيضا من أسباب، وهذه الأسباب كمـا يراها ابن حزم قد تكون قدرية كموت المحبوب، وقد ترجع لسلوكه تجاه المحب وابن حزم يعبر عن هذا المعنى فيقول: " وقد علمنا أن كل مالـه أول فلا بد له من آخر، حاشي نعيم الله عز وجل، الجنة لأوليائه وعذابـه بالنار لأعدائه، وأما أعراض الدنيا فنافذة فانية وزائلة مضمحلة، وعاقبـة

(١) يقصد : المحبين.

(٢) " طوق الحمامة " باب " المراسلة " ص ٤٠.

(٣) م.س. باب " السفير " ص ٤٢ .

(٤) م.س. نفس الموضع ص ٤٣ .

كل حب إلى أحد أمرين: إما اخترام منية، وإما سلو حـادث " (١) وابـن حزم هنا ينطق بعين البصيرة ويرى أن الحب من أعراض الدنيا التي من شأنها النقصان والزوال مثله في ذلك مثل كل أعراض الدنيا الزائلة فيرى أن نهاية كل حب يرجع لسببين: إما آفة الموت، وإمـا آفـة الهجـر أو النسيان، وأن هذه الأسباب ليست كلها تؤدي بالضرورة إلى موت الحب، ولكن وجود العوائق وبعد الزمن وطول الفراق أو الهجر قد يؤدي لموت الحب أو على الأقل فتور المحبة، ويري أن بعض السلوكيات التي تصدر من المحبوب لابد معها من تركه ونسيانه كالغدر مثلًا " وإن المتصبر في سلوه مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف، ولا أدعي إلى الـسلو عند الحر النفس وذوي الحفيظة والسرى السجايا من الغدر، فما يـصبر عليه إلا دنئ المروءة خسيس النفس نـذل الهمـة سـاقط الأنفـة " (٢)، ويستفيض ابن حزم في شرح الأسباب التي قد تؤدي بالحب وذلـك بعـد إيمانه أنه " لابد لكل مجتمع من افتراق ولكل دان من تناء"(٣) ويفرق بين حالتين:

الأولى: التي ينصرف فيها المحبوب بإرادته عن شـخص المحـب والأسباب التي تدعو لذلك فيري أن من أشد الأسباب التي تـدعو لنفـار المحبوب أن يذيع المحب سره للناس.

والحالة **الثانية:** التي ينصرف فيها المحب بإرادتـه عـن شـخص المحبوب، فيرى ابن حزم أن الهجر من أهم الأسباب التي تقتـل المـودة

(١) م.س. باب " السلو " ص ١٢٥ .

(٢) م.س. نفس الموضع ١٣٤ .

(٣) م.س. باب " البين " ص ١٠٠ .

وتدعو للبغض والصد وخاصة الهجر " الذى يوجبه الوشاه وما يتولد من دبيب عقاربهم وربما كان سببًا للمقاطعة البته" (١)، وأمر آخر يراه ابن حزم من أسباب القطيعة والسلو وهو التجني " وهو يقع في أول الحب وآخره فهو في أوله علامة لصحة المحبة وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو... ويقع فيه (٢) الهجر والعتاب ولعمري إن فيه (٣) إذا كان قليلًا للذة، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود، وأمارة وبيئة المصدر، وعلامة سوء، وهي بجملة الأمر مطية الهجران ورائد الصريمة ونتيجة التجني وعنوان الثقل ورسول الانفصال وداعية القلي، ومقدمة الصد، وإنما يستحسن إذا لطف وكان أصله الإشفاق " (٤). هكذا يفسر ابن حزم أثر التجني والهجر والعتاب في تكدير ما قد صفت لأجله النفوس يوما ما من الأيام، كما يؤكد ابن حزم في أكثر من موضع الأثر السئ الذي يوجبه الهجر في نفس المحب فيقول: " وأما الهجر فهو داعية السلو ورائد الاقلاع.... وما الهجر الإ جالب للكمد ويوشك إن دام أن يحدث إضرارًا" (٥)، ويقول في موضع آخر أن " الهجر إذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون بابًا إلى السلو " (٦)، وهنا نعود لفكرة الزمن – مثلما بدأنا بها – فكما أن المحبة الحقة تتأكد مع طول الزمن كذلك إذا

---

(١) م.س. باب " الهجر " ص ٨٦ .

(٢) ويقع فيه : أي في التجنى .

(٣) إن فيه : أي في العتاب .

(٤) " طوق الحمامة " باب " الهجر " ص ٨٦ .

(٥) م.س. باب " البين " ص ١٠٩ .

(٦) م.س. باب " الهجر " ص ١٢٨ .

طالت مدة الهجر وزاد زمن الجفاء يكون من ناحية أخرى بابًا للنسيان.

أما الموت فابن حزم يصف أثره في نفوس المحبين اللذين فقد أحدهما الآخر – لا الموت علي الإطلاق – فيقول: " ثم بين الموت وهو الفوت، وهو الذى لا يرجى له إياب، وهو المصيبة الحالة وهو قاصمة الظهر، وداهية الدهر، وهو الويل، وهو المغطي علي ظلمة الليل، وهو قاطع كل رجاء، وماحي كل طمع والمؤيس من اللقاء، وهنا حادت الألسن وانجذم حبل العلاج، فلا حيلة إلا الصبر طوعًا أو كرهًا، هو أجلّ ما يبتلي به المحبون، فما لمن دهي به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل، فهي القرحة التي لا تنكى، والوجع الذي لا يفني، وهو الغم الذى يتجدد على قدر بلاء من اغتمدته فى الثرى " (١). وبالموت تتصرم الأمور وينقطع كل ما من شأنه أن يوصل، وتفني الأجساد كما تفنى المحبة التي كانت تحل بها يومًا ما.

عبر هذا التحليل الشيق لابن حزم لأطوار الحب (نشأته، وحياته، ومماته) نجدها بلا شك قد قطعت مسافة عبر الزمان، وأن كل طور منها على حدة يشكله في حد ذاته أمور تقع هي الأخرى في زمان.

---

(١) م.س. باب " البين " ص ١٠٧.

المطلب الثالث: علاقة الحب بالجمال (١):

من منا يستطيع التحدث عن الحب وعلاقته بالجمال دون أن يجعل نفسه ضيفاً – رغم أنفه – علي تلك المأدبة الشهيرة التي عالج فيها أفلاطون موضوع الحب والجمال، لاسيما أنه " أول فيلسوف يوناني أهتم بتسجيل موقف معين من ظاهرة الجمال " (٢)، وأول من تكلم عن الجمال المطلق الذى يتجلى في جمال الشخص الجميل، فإذا أردنا أن نتكلم عن الجمال وعلاقته بالحب في فلسفة ما نجدنا مضطرين – للحتمية التاريخية من ناحية والريادية من ناحية أخرى – أن نقف وجهًا لوجه بإزاء آراء أفلاطون في ذات الموضوع لنري كيف أثرت المأدبة علي المفكرين المسلمين والذي يمثلهم الآن ابن حزم.

لقد سجل ابن حزم فلسفته عن الجمال ودوره وطبيعة علاقته بعاطفة الحب وكان دقيقًا في تبيان مذهبة حين فرق بين الحب الحقيقي والشهوة استنادًا علي الميل الطبيعي للنفس البشرية واستحسانها للصورة الحسنة أعنى المتمثلة في الشخص الجميل – كما سيأتي بيانه – ويكاد

(١) الجمال : " عند الفلاسفة صفة تلحظ في الأشياء ، وتبعث في النفس سروراً ورضى ، والجمال من الصفات : ما يتعلق بالرضا واللطف ، وهو أحد المفاهيم الثلاثة التي تنسب إليها أحكام القيم ، أعنى الجمال ، والحق ، والخير . قال (كنت) : الجمال هو ما يبعث في النفس الرضا دون تصور ، أي مايحدث في النفس عاطفة خاصة تسمى بعاطفة الجمال (" المعجم الفلسفي" جميل صليبا ج ١ ص ٤٠٧) والجمال " يطلق علي معنيين : أحدهما : الجمال الذى يعرفه كل الجمهور مثل صفاء اللون ولين الملمس، وغير ذلك مما يمكن أن يكتسب وهو علي قسمين : ذاتي وممكن الاكتساب ، وثانيهما : الجمال الحقيقي وهو أن يكون كل عضو من الأعضاء علي الفصل ما ينبغي أن يكون عليه من الهيئات والمزاج" (" كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي ج ١) .

(٢) " فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة " د/ محمد علي ابو ريان .

يجزم بأنه لا علاقة بين الحب والجمال ويبرهن علي ذلك بقوله: " لو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب الا يستحسن(١) الأنقص من الصورة، ونحن نجد كثير ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيدًا لقلبه عنه " (٢). ومذهب ابن حزم يبدو واضحًا لا لبس فيه يقول بنفى كون الحسن علة للحب، والأبعد من ذلك أنه يقرر أن كثيرا من الناس يستحسنون الأقل جمالا مع علمهم بوجود الأجمل، وعجز إرادتهم في الوقت ذاته عن دفع هذا الحب مما يدل علي صدقه وصحته ومدي تعلق نفوسهم به، وابن حزم هنا ذو مذهب واقعي يجعل من المحبة ظاهرة إنسانية لا تعدو حدود الأحوال البشرية عند مشاهدة الجمال في المخلوقات وإيثارهم أو عدم إيثارهم للجميل أو من كان أقل جمالا. عند ذلك الحد فابن حزم نجده بعيدًا كل البعد عن النظرة الأفلاطونية للجمال ودوره في الحب إلا أنه سرعان ما يورد عبارة يوحي ظاهرها بعكس ما قلنا فيعود ويقرر العلاقة بين الحب والجمال، فما يلبث البعض أن يجعل ابن حزم أفلاطونيًا رغم أنفه أراه علي مذهبة لا يحدو عنه، ونص العبارة كما وردت " بالطوق " " وأما العلة التي توقع الحب أبدًا في أكثر الأمر علي الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شئ حسن وتميل إلي التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميزت وراءها شيئا من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية، وإن لم

(١) يطلق الاستحسان " على ميل الإنسان إلى الشئ ، وإن كان مستقبحاً عند الغير ، وهو حكم بالتقدير والترجيح ، وأكثر استعماله في علم الأخلاق وعلم الجمال " " المعجم الفلسفي " ج ١ ص ٦٦ .

(٢) " طوق الحمامة " ابن حزم باب " ماهية الحب " ص ٧ .

تميز وراءها شيئًا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة"(١).

فالعبارة رغم ما تثيره من روح أفلاطونية إذ تذكرنا بالجدل الأفلاطوني وصعود النفس من خلال الصورة الحسنة واتصالها بالشكل النهائي أو الصورة أو مثال الجمال وحينئذ تصبح المحبة حقيقية في نهاية هذا الصعود وفق هذا المذهب، هكذا فسر البعض (٢) عبارة ابن حزم. إلا أن ابن حزم لم يرد هذا المعنى علي الإطلاق، لأن هناك بون شاسع بين رؤية ابن حزم للجمال ودوره في الحب وبين رؤية أفلاطون له، ثم أن هناك اختلافًا بينيًا آخر في موضوع الحب عند كلٍ والغاية منه. فالعلاقة بين الحب والجمال عند أفلاطون علاقة شائكة ومعقدة يرتبط الجمال فيها ليس بالحب فقط بل بالحق والخير والمعرفة متدرجًا عبر رحلة من الشوق العارم لمثال الجمال الذي يتصف بالوجود الدائم ولا يعرف مولدًا ولا فناء ولا زيادة ولا نقصانًا... الخ. ويرى أفلاطون أنه لابد في هذا الصعود " أن نبدأ بألوان جمال هذا العالم وأن نرتفع دوامًا باتخاذ هذا الجمال كغاية مارين بدرجات إن جاز القول ومنتقلين من بدن جميل واحد إلى اثنين، ومن اثنين إلى الكل، ثم من الأبدان الجميلة إلى الأعمال الجميع، ومن الأعمال إلى العلوم الجميلة بحيث نبدأ من العلوم فنصل في النهاية إلي ذلك العلم الذى لايكون موضوعه سوى الجمال في ذاته، وهو الجمال الذي أتحدث عنه، ونعرف في النهاية ما يكون جميلًا بذاته

(١) م.س. ص ١٠

(٢) انظر د/ علي سامي النشار ، د/ الأب جورج قنواتي ، أ. عباس أحمد الشربيني تأليف وترجمة " المأدبة أو في الحب لأفلاطون مع دراسة نقدية عن أثر المأدبة في الفكر الفلسفي " ص ٣٤٤ ..

فقط"(١).

فالحب والجمال إذن يُشكلان منظومة تبدأ بمحبة الجمال الحسي المتمثل في الجزئيات أو الأفراد أو الجمال البدني ثم يعرجان إلى الجمال المعنوي المتمثل في الفضيلة، ثم جمال المعارف أو العلوم وانتهاءً بمعرفة الجمال المطلق، أي إدراك الجمال الإلهى، وحالتئذ ينعم المرء بمعرفة الحق، كما ينعم باتحاده بالخير الأسمى فالحب إذن يشكل قيمة أخلاقية في فلسفة أفلاطون إذ أنه تلك الرابطة العجيبة للمنظومة القيمية في ثالوثها المقدس " الحق والخير والجمال " وإن شئت قل: " الحب والحق والخير والجمال ".

أما ابن حزم لم يشأ أن يعرج بالحب والجمال إلى تلك الرؤى الميتافيزيقية بل كانت له رؤية تتسم بالطابع الإنساني الواقعي فإذا ماعدنا لعبارته التي يقرر فيها العلاقة العلية بين الحب والجمال إنما يعنى تلك العلة الطبيعية التي تكمن بداخل النفس البشرية في إنجذابها الفطري الطبيعي للجمال واستحسانها للصور الحسنة المتقنة، وهذا الانجذاب لا يعني عند ابن حزم إلا ضربًا من ضروب الشهوة التي هي بطبيعة الحال بعيدة كل البعد في طبيعتها وماهيتها ودواعيها عن ماهية الحب، فيري أن النفس حين تتعلق بالصورة الجميلة حال رؤيتها، قد يتحول هذا التعلق الطبيعي إلى محبة حقيقية إذا لاحظت النفس وأحست ما بينها وبين صاحب الصورة من مشاكله تكون سببًا لاتصال النفوس بحيث تصح المحبة الحقيقية بينهما " والدليل علي هذا أنك لا تجد اثنين متحابين إلا

(١) م.س. ص ٩٧

وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لابد في هـذا وإن قـل وكلمـا كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة " (١) إذن المشاكلة واتفـاق الصفات الطبيعية هما السبب الرئيسي في اتصال النفوس وهذا الاتـصال لا يقصد به ابن حزم اتصال النفوس بمثال الجمال أو عالم الألهـة كمـا يحكيه أفلاطون بل يقصد " كل اثنين متحابين " علي أرض الواقع وممـا لا شك فيه أن كلام ابن حزم لا ينطبق علي الذات الإلهية فليست هنـاك مشاكلة أو اتفاق في الصفات الطبيعية بين البشر وبين الإلة وحاشـى لله أن يخطر هذا المعنى علي قلب ابن حزم بدليل أنه جعل المحبة الحقيقيـة في مقابلة الشهوة وهو حين يفرق بشكل حاسم بين الحب والشهوة يجعلنا نستنكر معه – وإن لم ينطق هو بذلك – أن يكون هنـاك جمـال إلهـي يعترينا نزوعًا شهويًا نحوه – إن صح مني هذا التعبير.

أما إذا لم تلاحظ النفس شيئا من أشكالها عند رؤية الصورة الجميلة فحينئذ " لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة " عند ابن حزم، وهو يقرر ذلك المعنى في موضع آخر فيقول: " وأما ما يقع مـن أول وهلـة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان وهذا سر الشهوة ومعناها علي الحقيقـة فـإذا غلبـت الـشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقا" (٢). وعلي ذلك فابن حزم لـم يقـل باتحـاد الحـب والجمال بل باتحاد الأرواح وتجانسها واتفاقها في الطـبائع.

(١) " طوق الحمامة " ابن حزم باب " ماهية الحب " ص ٩ .

(٢) م.س ص ٣١.

والذى يعنينا من كل هذا أن ابن حزم لم يقل باتصال النفوس بمثال الجمال أو بالجمال المطلق بل اتصالها ببعضها البعض اتصالًا بشريًا لــه علاماته وأعراضه الإنسانية، ولا علاقة له بعالم الآلهة بسماته المطلقــة، فإذا كان هناك ثمة اختلاف بين أفلاطون الإلهي وابــن حــزم بنزعتــه الواقعية فإنما يتضح ذلك من رؤية كليهما للجمال وعما إذا كان هدفًا في ذاته أم لا، ومدى ارتباطه بموضوع الحب عند كــلٍ – اعنــى ارتبــاط الجمال بالمحبوب عند كل – وكذا الغاية من الحب والجمال معًا، فالجمال ليس هدفا في ذاته عند ابن حزم ولا وسيلة أيــضا بــل الهــدف عنــده الشخص المحبوب الذى يتصف أولا يتصف بصفة الجمال مــع تحفظــه علي تفاوت الناس في النزوع نحو هذا الجمال ففي الوقت الذي يؤكد فيه أفلاطون " أن القبح لا يكون أساسًا للحب... وأن هناك خصومة مستمرة بين المظهر القبيح والحب " (١) نجد ابن حزم يؤكد في أكثر من موضــع أن الجمال ليس عله للحب بل المشاكلة والاتصال الروحاني... الخ، ولذا اختلفت الغاية من الجمال لديه عن الغاية منه عند أفلاطون، فالجمال غاية في ذاته في فلسفة أفلاطون وليس الشخص المحبوب وتبعًا لذلك لم يتــسم الحب عنده بطابع الفعل والانفعال لأنه لم ينشغل بشخص المحبوب قــدر اشتغاله بما سوف يصل إليه المحب في صعوده لمثال الجمال، ومن ثــم للحيز الأسمي بمعنى أن " الإيروس(٢) اليوناني لم يكن يعني المــشاركة المتبادلة بين شخصين متساويين بل كان يعني الهوى الجامح الذي يــذيب

---

(١) راجع " المأدبة " ص ٥٦ ، ٥٨ .

(٢) الإيروس هو : " إله الحب عند اليونان وايروس أيضا هو الحب أو الرغبة الجنسية الشديدة ، وهي مقابلة للصداقة والمحبة " (" المعجم الفلسفي " جميل صليبا ج ١ ص ١٨٣) .

فردية العاشق في حالة من الاتحاد الصوفي مع المطلق أو الله، ومن هنا فإن المحب لم يكن يتوقف عند محبة القريب بل كان يمضي مباشرة نحو الحقيقة الإلهية آملًا أن يكسب محبة ذات صبغة إلهية وكأن عشقه في الحقيقة حلقة دائرية تبدأ منه لكي ترتد إليه ولعل هذا هو السبب في أن كثيرًا من المفكرين الذين تحدثوا عن الحب في العصور الوسطي المسيحية قد اعتبروه ضربًا من الاستغراق في الجمالي الأزلي وكأن الاتحاد بالله هو صورة من صور الخبرة الجمالية " (١).

وإذا ما تواصلنا مع حكيم اليونان وفقيه الأندلس فإن ثمة أمر آخر يفرق فيما بينهما فيما يختص بالجمال ودوره في الحب ووقفنا علي أن للجمال عند ابن حزم دورًا ثانويًا جدًا في الحب لا يتعدى الاستحسان الفطري له، أما أفلاطون فإن للجمال دور آخر غير ما ذكرناه عما قليل، وهذا الدور ينحصر في إتمام عملية الإنجاب والتناسل بهدف استمرار الوجود والخلود وفكرة أفلاطون أن " هذا الانجاب مستحيل من جانب القبيح إلا أنه ممكن من جانب الجميل، وأن اتحاد الرجل والمرأة هو في الواقع اخصاب وفي هذا العمل شئ مقدس بل إن الإنجاب لدى هذا الحي الفاني هو طابع الخلود والخصوبة والإنجاب، ولكنه من المستحيل أن يحدث فيما هو متنافر وبينما هناك تنافر بين ماهو قبيح وكل ماهو مقدس فإن الجميل علي العكس متفق معه"(٢) وبناءًا علي ذلك فإن الحب في نظر أفلاطون ماهو الا " التكاثر والولادة من جانب الجميل"(٣). أما ابن

(١) " مشكلة الحب " د/ زكريا ابراهيم ص ١٤٢ .

(٢) ، (٣) راجع " المأدبة " ص ٨٥ .

حزم فإنه ينأى بالحب تمامًا عن أى وظيفة بيولوجية يمارسـها الإنـسان يندمج فيها الحب بالجمال كما يرى أفلاطون بل الحب عاطفـة خالـصة لديه ليس له علاقة بالتكاثر وليس له علاقة في الوقت ذاته بعالم المثل أو بأي نزعة إلهية أخري، فموضوع الحب عنـده بدايتـه كنهايتـه وهـو الشخص المحبوب في حد ذاته لا بوصفه ولا بأمر آخر، أمـا موضـوع الحب عند أفلاطون هو في نهاية الأمر " الجمال بالذات ".

المطلب الرابع: علاقة الحب بالحرية والإرادة.

تعددت أراء الفلاسفة والمتكلمين حول المفهوم من الحرية (١)، والمفهوم من الإرادة(٢)، كما تعددت تعبيراتهم في ذلك، وإنما قصدت الحديث عنهما معًا في علاقتهما بالحب لما بينهما من علاقة، فالحديث عن واحدة يدعونا للحديث عن الأخرى، فإذا كانت الإرادة هي: شوق

(١) الحرية : لها ثلاثة معان : الحرية بالمعني العام ، و الحرية بالمعني السياسي و الإجتماعي ، و الحرية بالمعني النفسي و الخلقي ، و الأخير إنما يدل "علي حالة شخص لا يقدم علي الفعل إلا بعد التفكير فيه سواء كان ذلك الفعل خيراً أو شراً ، فهو يعرف ما يريد و لمَ يريد ، ولا يفعل أمراً إلا و هو عالم بأسبابه ، لذلك قيل : أن الحرية هي الحد الأقصي لاستقلال الإرادة العالمة بذاتها ، المدركة لغايتها ".

(" المعجم الفلسفي " جميل صليبا ج ١ ص ٤٦٣) .

(٢) الإرادة : " هي في الأصل طلب الشئ ، أو شوق الفاعل إلي الفعل إذا فعله كف الشوق ، و حصل المراد، و يشترط في هذا الشوق إلي الفعل أن يشعر الفاعل بالغرض الذي يريد بلوغه و أن يتوقف عن النزوع إليه توقفًا مؤقتًا ، و أن يتصور الأسباب الداعية إليه و الأسباب الصادة عنه ، و أن يدرك قيمة هذه الأسباب ، و يعتمد عليها في عزمه ، و أن ينفذ الفعل في النهاية أو يكف عنه " (م. س . ج١ ص ٥٧) .

الفاعل إلي الفعل، فإن الحرية إنما تعني القدرة علي الإختيار(١)، إلا أن هناك فرقًا دقيقًا بين الإرادة والإختيار فالإرادة هي: نزوع النفس وميلها إلي الفعل، أما الاختيار فهو ميل مع تفضيل(٢).

فإذا قلنا أن النفس في نزوعها وميلها تشمل الفعل الوجداني كما تشمل الفعل الظاهري فلا شك أن المحبة إرادية؛ لأن كل نفس تشتاق إليها كما الكون بأسره يشتاق بحركته إلي مبدعه، إلا أن هذا الشوق- أعني الذي يكون بين البشر- إنما ينشأ في الغالب لاعن قصد أو اختيار، أي إننا نمارس إرادتنا في المحبة بحرية تامة إلا أن موضوع المحبة إضطراري ومعني هذا أن المحبة إرادة بلا حرية، ونزوع بلا إختيار، ولكن هل يتفق جميعنا علي ذلك؟ أم من الممكن أن يقصد المحب شخصًا دون آخر فيقبل نحوه مختارًا ليتخذه موضوعًا لحبه؟ وهل باستطاعة المرء إذا أحب شخصًا أن يدفع عنه هذا الحب بحرية تامة إذا

---

(١) الإختيار هو : " ترجيح الشئ و تخصيصه و تقديمه علي غيره و هو أخص من الإرادة ، وله عند القدماء معنيان : الأول كون الفاعل بحيث إن شاء فعل و إن لم يشأ لم يفعل ، و الثاني صحة الفعل و الترك بمعني أن المختار هو القادر الذي يصح منه الفعل و الترك فإن شاء فعل و إن شاء ترك ، و المقصود بحرية الإختيار القدرة علي اختيار أحد المقدورين أو إتصاف الإرادة بالقدرة علي الفعل دون التقييد بأسباب خارجية " (م . س ج ١ ص ٤٨) .

وقيل : " الإختيار إرادة قد تقدمها روية مع تمييز "(" رسالة في حدود الأشياء و رسومها " أبو يعقوب يوسف بن اسحق الكندي ص ١٦٧).

(٢) "كأن المختار ينظر إلي طرفي المقدور ، و المريد لا ينظر إلا إلي الطرف الذي يريده ، قال الفارابي: إن الإنسان قد يتقدم فيختار الأشياء الممكنة ، و تقع إرادته علي أشياء غير ممكنه ، مثل أن الإنسان يهوي أن لا يموت ، و الإرادة أعم من الإختيار ، فإن كل إختيار إرادة ، و ليس كل إرادة إختيار".("المعجم الفلسفي " جميل صليبا ج١ ص ٦٠) .

صادف عيبًا ملحوظًا في شخص المحبوب مثلا ؟ وهل إذا تجمعت لديه ـــــــ أي شخص المحبوب ـــــــ أسباب المحبة فهل من الضروري أن يجد المرء نفسه محبًا لمن تجمعت لأجله هذه الأسباب ؟ وهل حقا أن الحب " نوع من الرق الإرادي " كما ذهب إليه أفلاطون ؟ وإذا كانت الإرادة عنصرًا من عناصر المحبة فهل يصدق ذلك علي الحرية ـــــــ أو بعبارة أوضح ـــــــ هل الحب أمر نختاره بكامل حريتنا أم أننا نبتلي به من غير حول منا ولا قوه ؟

يرى ابن حزم أن المحبة عملية شعورية إرادية ولكن لا مدخل فيها للحرية، ولا مجال فيها للاختيار بأي حال فرأيه أنك إن " بذلت نفسك لم يكن اختيارًا بل كان إضطرارًا ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها "(١)، وهنا يجعل ابن حزم المحبة أمرًا إضطراريًا لا يملك المرء أسباب تصريفه، ويستنكر علي من " يزعم أنه يتخير من يحب " (٢) فالمحبة عنده " داء عياء وعلة مشتهاه لا يود سليمها البرء " (٣) فيشبه الحب بالمرض فكما أن المرء يقف عاجزًا أمام المرض فلا يملك دفعه كذلك الحب، ويري أن السبب في ذلك " أن القلوب بيد مقلبها لا إله إلا هو ولا يكلف المرء صرف قلبه ولا إحاطه استحسانه " (٤).

وابن حزم حين يتحدث عن الاضطرار والإختيار في عملية المحبة يفرق أولًا بين الشعور " المحبة " والفعل المباشر ويفرق كذلك بين

(١) " طوق الحمامة " باب " الطاعة " ص ٥٥ .

(٢) م . س باب " من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها " ص ٣٥ .

(٣) م . س باب " الكلام في ماهية الحب " ص ١٢ .

(٤) م . س باب " السلو " ص ١٣٣ .

ما يملكه الإنسان ويقدر عليه، وما لم يكن كذلك، فيري أن الاختيار إنما يلزم الفعل أما المحبة فلا يلزمها ذلك حيث أنها لا تخضع لقانون الإلزام الذي يفرض علي الفعل أحكامه الدائرة بين الحلال والحرام أو بين الخطأ والصواب ويري أنه " بحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة أما إستحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهي عنه " (١)

و في الوقت الذي يجزم فيه ابن حزم بالقول باضطرارية الحب لم يعبأ بذكر الأقوال التي تخالف ذلك كما لم يفرق بين أول العشق وآخره بحيث يكون اختياريًا في مبدأه واضطراريًا بعد ذلك، وهو ما ذهب إليه ابن القيم فيما بعد حيث حاول التوفيق وبنوع من الوسطية بين من يقول بالاضطرار في الحب وبين من يعتبره أمرًا اختياريًا فيقول: " وفصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكير والتعرض للمحبة أمر اختياري فإذا أتي بالأسباب كان ترتيب المسبب عليها بغير اختياره " (٢)؛ ويشبه ابن القيم هذا بالخمر ويقدم بناءًا علي المقارنة بين العشق والسكر تحليلًا عقليًا يهدف إلي تقنين العلاقة بين الأسباب والمسببات، مقرونًا في الوقت ذاته برؤية شرعية تجعل نتيجة الفعل أمرًا لازمًا لأسبابه دون تخلف، ولا شك أنه هنا يعتمد وبشكل مباشر علي فكرة التوليد التي سبق أن قال بها المعتزلة فيري أن " تناول المسكر اختياري وما يتولد عنه السكر

(١) م . س باب " طي السر " ص ٤٣ .

(٢) " روضة المحبين و نزهة المشتاقين " لابن قيم الجوزية ص ١١٤ .

اضطراري"(١) إلا أن اضطرارية النتائج لا تعني عند ابن القيم أنها لا تدخل تحت طائلة التكليف " فمتى كان السبب واقعا باختياره لم يكن معذورًا فيما تولد عنه بغير اختياره فمتي كان السبب محظورًا لم يكن السكران معذورًا، ولاريب أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب المسكر فهو يلام علي السبب" (٢)، ومع تقديرنا لكلام ابن القيم إلا أن ما قاله ليس هو محل النزاع لأنه يفرق بين نوعين من الأسباب التي يحصل بها العشق الأول: ما كان سببا محظورا وهو ما بني عليه أحكامه السابقة، والثاني: ما كان سببا غير محظور وهذا السبب هو محل النزاع إلا أن ابن القيم لم يأت فيه بجديد لأنه يقرر أنه " إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يلم عليه صاحبة كمن كان يعشق إمرأته أو جاريته ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارق له... وكذلك إذا نظر نظرة فجاءة ثم صرف بصره وقد تمكن العشق من قلبه بغير اختياره " (٣) وهذا القول لا يخرج عن قول ابن حزم باضطرارية الحب ووقوعه في نفوس البشر بغير اختيار، كما أنه لم يفرق بين الفعل والعاطفة فيما يترتب عليهما من أحكام كما فعل ابن حزم، فالقوة النزوعية التي بها يطلب الإنسان الشئ ويشتاقه تجدها في المحبة وغيرها من سائر عوارض النفس، ولا تجدها في فعل شرب الخمر أو أي فعل آخر بعد خروجه من القوة إلي الفعل، وأعني بالفعل هنا: التأثير في موضوع قابل للتأثير. إذن ما يسري علي السكر من أحكام لا يسري علي المحبة لأن هناك عقوبة شرعية (الحد)

(١) م . س . نفس الموضع ص ١١٥ .

(٢) م . س . نفس الموضع .

(٣) م . س . نفس الموضع .

علي فعل شرب الخمر، وليست هناك عقوبة شرعية علي نزوع النفس نحو المحبوب، كما أن متابعة النظر واستدامة الفكر وغيرها من الأمور التي يراها ابن القيم أسبابًا اختيارية للحب هي ليست أسبابا مستقلة للحب بل هي مداخل للنفس البشرية وأمور تلي وقوع المحبة بعد أن تكون قد تمكنت من النفس بأسباب حقيقية أخري كنظرة الفجاءة وعلي ذلك فمتابعة النظر أمر ونظرة الفجاءة أمر آخر ولم يقل أحد بأنها سبب اختياري بل اضطراري وغير محظور، وغير المحظور لا يشترك في حكم واحد مع المحظور، وابن القيم نفسه يقرر أن " التناسب الذي بين الأرواح من أقوي أسباب المحبة.. وأن شبه الشئ ينجذب إليه بالطبع " (١)، والقول بكون الطبع سببًا يتنافي مع القول بالاختيار، كما يتنافي مع القول بأن النظر والفكر أسباب أساسية للحب، إذ من الجائز أن يعشق المرء شخصًا لم يقع عليه نظره، ومن الجائز أيضًا أن يقع النظر علي من قامت به الصفات التي تدعو إلي محبته ولم تحصل المحبة لعدم حصول الملائمة بينهما، وهو ما يعنيه ابن القيم بالمناسبة، وهو حين يقرر أن المحبة إنما تقع أولا (٢) ثم تتبعها الإرادة فإن ذلك يتنافي مع قوله أن مبدأ المحبة اختياري وما يتولد بعد ذلك يكون اضطراريًا، وعلي ذلك فإن محاولة التوفيق التي قدمها لفصل النزاع إجتهاد لا داعي له.

وابن حزم لم يكتف بنفي الاختيار عن المحب بل ينفي عنه كذلك تمييزه في بعض أوجه الحق فيما يصدر عن المحبوب ورضاه بما لم

(١) م . س ص ٥٦.

(٢) راجع : " روضه المحبين " لابن القيم ص ٤٧ " الباب الرابع " .

يكن يختاره لو خير فيه من قبل " واستغراب كل ما يأتي به وكأنه عين المحال وخرق العادات، وتصديقه وإن كذب وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار واتباعه كيف سلك، وأي وجه من وجوه القول تناول " (١).

كما يري أن مبدأ الاضطرار كما يفرض نفسه علي المحب منذ البداية يفرض نفسه كذلك في علاقته مع المحبوب فربما تتحكم المحبة فتسيطر علي عقله ـــــــ أي المحب ـــــــ فيأتي بأمر قد يبغضه المحبوب أو ينفر منه كأن يذيع سر محبته للناس، ويري ابن حزم أن السبب في ذلك " غلبة الحب وتسور الجهر علي الحياء فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلًا، وهذا من أبعد غايات العشق وأقوي تحكمه علي العقل، حتي يمثل الحسن في تمثال القبيح، والقبيح علي هيئه الحسن وهنالك يري الخير شر، والشر خير " (٢).

ومن مظاهر سلب حرية المحب تجاه محبوبه طاعته العمياء له وكأنه عبدًا مملوكًا له وتبدل طباعه رغمًا عنه " ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه قسرًا إلي طباع من يحبه وربما يكون المرء شرس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة ماضي العزيمة، حمي الأنف أبي الخسف فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ويتورط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشارسة ليانا، والصعوبة سهلة، والمضاء كلالة، والحمية إستسلاما" (٣).

وثمة أمر لا يستنكره ابن حزم بل يراه صفة لا تنفك عن المحب

---

(١) " طوق الحمامة " لابن حزم باب " علامات الحب " ص ١٤

(٢) م . س ، باب " الإذاعة " ص ٤٧.

(٣) م . س باب " الطاعة " ص ٥١ .

الصادق وهو رضاه بذلة المحبوب فيقر بذنب هو برئ منه، ويعتذر دون عذر ولو " شاهدت مقام المحب في اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مطاع"(١)، وأن من يقول " أن صبر المحب علي ذلة المحبوب دناءة في النفس"(٢) فقد أخطأ لأن " المحبوب ليس له كفوًا ولا نظيرًا فيقارض بأذاه " (٣).

وهذه الأحوال التي يقرها ابن حزم والتي تعتري المحبين من الطاعة والرضا بالذل والانقياد للمحبوب في كل قول أو فعل يلخصها في بيت من الشعر يشبه فيه المحب بالأسير الذي يرضي بأن يقاد بمحض إرادته ولو أدي به ذلك إلى الفناء فيقول:

وإذا قمت عنك لم أمشي إلا ∴ مشى عان(٤) يقاد نحو الفناء(٥)

ورؤية ابن حزم التى تربط إرادة المحب بمحبوبه تتفق دونما شك مع رؤية أفلاطون فى " أن الحب نوع من الرق الإرادى الذى لا يلام عليه المحبوب، وأن المحبين يقبلون أن يكونوا عبيدًا لمحبوبيهم عبودية لا تخطر على البال"(٦).

وابن حزم يؤكد على هيمنة الحب وفرض سلطانه ليس فقط على سلوك المحبين بل على نفوسهم أيضا فيقول: " واعلم أعزك الله أن للحب

(١) م . س باب " الواشي " ص ٦٣ .
(٢) م . س باب " الطاعة " ص٥٢
(٣) م . س نفس الموضع.
(٤) عان : أي أسير.
(٥) " طوق الحمامة " ص ١٤.
(٦) " المأدبة " لأفلاطون ص ٢٨ بتصرف .

حكمًا على النفوس ماضيًا وسلطانًا قاضيًا، وأمرًا لا يخالف، وحدًا لا يعصى، وملكًا لا يتعدى وطاعة لا تصرف ونفاذًا لا يرد"(١)، ويوضح أن هذه الهيمنة إنما تتمثل فى أثر الحب فى تشكيل شخصية المحب وتطويع ميوله النفسية والمزاجية وثبات هذا الميل طبقًا لما مر به من تجارب عاطفية سابقة تفرض نفسها فرضًا حتميًا على ما قد يمر به المحب بعد ذلك بتجارب عاطفية أخرى "فيكاد ينص على ما اصطلح علماء التحليل النفسى اليوم على تسميته باسم" التثبيت" وهو عبارة عن ارتباط المرء فى صباه بشخص أو شئ ارتباطًا وثيقًا بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسى أو البلوغ العاطفى"(٢)

وابن حزم حين يقرر سلب حرية المحب فيما يصدر عنه من سلوك أو مشاعر تجاه المحبوب، وحين يقرر سلب حرية المحب فى وقوع المحبة ابتداءًا بحيث لا يستطيع صرف هذا الحب أو أن يجد لنفسه زمامًا ليتخير به من يحب، فإنه لا ينكر على المرء قدرته فى أن يتحكم بإرادته وبحرية مطلقة "إن أحس من نفسه بابتداء هوى أو توجس من استحسانه ميلًا إلى بعض الصور استعمل الهجر وترك الإلمام لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده "(٣)، وهنا فإن ابن حزم يوظف الحرية والإرادة لضبط النفس، والبعد عما حرم الله. وله فى ذلك المعنى بيتًا من الشعر يقول فيه:

---

(١) "طوق الحمامة " لابن حزم باب "من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها " ص ٣٣.

(٢) "مشكلة الحب" د/ زكريا إبراهيم ص ٢٧٣ وله أيضـًا : "ابن حزم الأندلسى " ص ٢٤٥.

(٣) "طوق الحمامة " باب " من لا يحب إلا مع المطاولة" ص ٢٩.

سأبعد عن دواعى الحب إنى ∴ رأيت الحزم من صفة الرشيد(١)

أما الإرادة، فابن حزم يرى أنها علة المحبة، وهو حين يتحدث عن العلـــة إنما يقصد ما قام بالمحب لا ما قام بالمحبوب، لأن ما قام بالمحبوب هو فى الحقيقة سبب لمحبته لا علة (٢)، ويفرق بين إرادة المحب وإرادة المحبوب، وحديثه فى تحليل المحبة إنما ينصب غالبًا على المحب لا المحبوب، فهو كما يعطى للمحب الحق فى إرادة المحبة يعطى فى الوقت ذاته للمحبوب الحق فى قبول المحبة أو رفضها فهو " مخير فى القبول أو الترك فإن قبل فغاية الرجاء،وإن أبى فغير مستحق للذم"(٣).

وهكذا يمضى بنا ابن حزم واقعيًا كعادته فى حديثه عن الإرادة وعلاقتها بالمحبة حيث اقتصرت فلسفته هنا على " الإرادة الإنسانية" وعلاقتها بنشأة المحبة دون أن يخلط فى حديثه هذا بين "علاقة الإرادة بالمحبة بين الناس"، وبين "علاقة الإرادة والمحبة والحركة " فى إيجاد العالم العلوى والسفلى كما فعل ابن سينا وإخوان الصفا وابن القيم على سبيل المثال حيث تحدثوا فى رسائلهم عن العشق حول ما كان منه إنسانيا،وما كان منه كونيًا على نهج القدماء فى حديثهم عن العشق، أما ابن حزم فقد جاءت رسالته عن الحب إنسانية خالصة تقنن حالة العشق بين شخص وآخر ولا علاقة لها بأى نزعة صوفية أو كونية أو ميتافيزيقية أو ما إلى ذلك فجاءت فلسفته عن الحرية والإرادة عبر " الطوق" من خلال عبارات تتسم بسهولة الأسلوب وسلامة العرض

---

(١) م. س . نفس الموضع .

(٢) كما سيأتى بيانه فى مبحث " علة الحب وأسبابه" من هذا البحث.

(٣)" طوق الحمامة " باب " الوفاء " ص ٩٦

ووضوح الفكرة.

المطلب الخامس: علاقة الحب بالإدراك الحسى

لا ينبغى أن نجزم بحتمية العلاقة بين الحب والإدراك الحسى إذ ليس بالضرورة أن تكون لكل حياة داخلية ما يقابلها فى الخارج إلا أنه لما كان الموجود البشرى بطبيعته الشهوية وبما ركبت فيها من قوة حيوانية، ولما كان خليطًا من الروح والجسد، وجب حالتئذ أن يظفر كل جانب بما ينشده ويلائمه، والشارع الحكيم لم يجحد ذلك على الإنسان بل قنن إدراكاته وحواسه وهذبها (١) بما يتفق مع مقاصد الشريعة التى تعينه على الاستقرار النفسى والسكينة التى دعامتها المودة والرحمة بين كل زوجين، ومن ثم قدرته على التقوى وعبادة الله، وثمة أمر آخر لا يقل أهمية وهو إعمار الدنيا وإلا لما كنا بحق مستخلفين فى الأرض.

وإذا كنا نتحدث عن الإدراك الحسى وعلاقته بالحب وجب علينا أن نبين طبيعة هذه العلاقة أهى سببية، أم تبعية... الخ، ووجب علينا كذلك أن نوضح دور الإدراك الحسى فى الحب أى فى نشأته وتأكيده ونموه وديمومته (٢) ويحق لنا أن نتساءل، هل كل محب يفتقر حتمًا لهذا النوع من الإدراك أم يكتفى بالإدراك الوجدانى فحسب ؟ وهل الإدراك الحسى يرقى لأن يكون سببًا للعشق المحض أم يقتصر دوره على المحبة العادية التى يعتادها الناس ؟ وهل الحب يعتريه بعض من التعقل ؟ وإذا قلنا أن الحب يجمع بين الوجدان والحس والتعقل، فمتى يكون وجدانيًا

---

(١) راجع كلام ابن حزم عن رأى الشرع فى هذا الموضوع " الجانب الدينى" الفصل الثاني من هذا البحث .

(٢) راجع : " علاقة الحب بالزمن " من هذا البحث .

فقط، ومتى يكون حسيًا فقط، ومتى يكون متعقلًا، ومتى يجمع بين الثلاثة؟ وهل تتساوى رؤية ابن حزم فى أهمية أحد هذه الإدراكات دون الأخرى؟ وإذا ما أفردنا بالذكر الحسي منها فقط على تنوعه فهل تستأثر حاسة بعينها بتلك العلاقة دون أخري، أم أن الحواس كلها تشترك معًا لتشكل منظومة إدراكية بحيث يستيقظ على إثرها الحب من ثباته النزيه المطلق إلى دنيا الحس بطبيعته المادية القائمة على اللذة والمنفعة المشروطة ؟

كل تلك أسئلة عرضها وناقشها عالمنا الجليل ابن حزم، وبادئ ذى بدء يقسم الحواس حسب أهميتها فى إدراك المحبوب ويرى أن البصر أهمها ويليه فى الأهمية بقية الحواس ففى رأيه " أن العين تنوب عن الرسل،ويدرك بها المراد والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملا، وهى رائد النفس الصادق، ودليلها الهادى ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين" (١) يقصد أن من أحب بالوصف ليس كمن رأى محبوبه بعينه، ويقصد كذلك أن حاسة السمع أقل أهمية من حاسة البصر فى عملية الإدراك سواء فى الحب أم فى غيره.

وهذا النص يوقفنا على فلسفة ابن حزم فى عملية إدراك المحبوب،وفيه إشارة إلى دور الحواس فى كونها سببًا للمحبة باعتبارها أبوابًا إلى القلب ومنافذ نحو النفس لا أسبابا على الإطلاق بل يعتبرها مجرد أسباب ظاهرية وقريبة ومشروطة فى الوقت ذاته، فعلى سبيل

---

(١) "طوق الحمامة " باب " الإشارة بالعين" ص ٣٩ .

المثال إذا تحدثنا عن دور النظر يرى ابن حزم أن " كثيرًا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة"(١) ولا يظن أحد أن هذه الرؤية تتعارض مع قوله أن " من أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو" (٢) وأنه "يطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة "(٣) لأن النظر فى رأيه لا يرقى لأن يكون سببًا للحب لأنه فى حقيقة الأمر ضرب من الشهوة التى تسمى محبة على سبيل المجاز، ويفسر هذه المحبة على أنها لا تعدو الاستحسان الطبيعى للنفس للصورة الحسنة، ويقرر أن " ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان(٤) الجسدى واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان، وهذا سر الشهوة، ومعناها على الحقيقة، أما إذا غلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقًا، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا آنفًا، وهى عل هذا المجاز تسمى محبة لا على التحقيق" (٥) ومعنى هذا أن ابن حزم يفرق بين أسباب العشق وأسباب الشهوة، ويرى أن الإدراك الحسي متعلق بالشهوة فقط ولا علاقة له بالعشق إلا إذا تحقق شرط آخر وهو الاتصال النفسانى واشتراك الطبائع وحالتئذ يكون اتصال

---

(١) م. س باب "من أحب من نظرة واحدة " ص ٢٧.

(٢) م. س . ن ص ٢٨ .

(٣) م . س باب " من لا يحب إلا مع المطاولة ص ٣٠.

(٤) راجع " علاقة الحب بالجمال " من هذا البحث .

(٥) "طوق الحمامة" باب " من لا يحب إلا مع المطاولة " ص ٣١.

النفوس هو السبب الرئيسى فى العشق،وليس الإدراك الحسى.

وثمة شرط آخر يراه ابن حزم ضرورة لتأكيد ذلك الحب ودوامه ويراه علامة على صدقه وتميزه عن الشهوة العارضة ألا وهو عامل الزمن(١) وطول العشرة وهنا يأتى دور التعقل فى عملية المحبة وابن حزم يرى ضرورة توظيف العقل لدراسة أهلية المحبوب قبل اتخاذه موضوعًا دائما للحب ويواصل حديثه عن نوع آخر من الإدراك وهو الملامسة وما يتبعها من العناق والتقبيل والمضاجعة ويرى أن هذا الإدراك بوجه خاص "وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولد المحبة إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها "(٢) وهنا تتضح ضرورة عامل الزمن والعشرة فى تأكيد المودة وديمومة الحب فلا شك أن الأزواج المتحابون تلتقى عند أعتابهم ضروب المحبة الثلاث: الوجدانية، والحسية، والمتعقلة، وهنا يأخذ الحب شكلًا أكثر قداسة وأهمية بهما تدوم العشرة وتستقيم الحياة الزوجية، ولا شك لوجود مرجعية دينية يرتكز عليها ابن حزم فى فكرته عن عامل الزمن والعشرة فى ديمومة الحب– وإن لم يصرح بها – وهى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً... ﴾ "(٣) فإذا كانت المودة من ضروب المحبة فإن الرحمة من ضروب التعقل،ولا شك أنهما بابان لسكون النفس.

ورأى ابن حزم عن الإدراك بحاسة اللمس ودوره فى الحب لا

(١) راجع : " علاقة الحب بالزمن" من هذا البحث .

(٢) "طوق الحمامة" باب " من لا يحب إلا مع المطاولة" ص ٣٢.

(٣) سورة الروم آية رقم (٢١) .

يختلف عن الإدراك بحاسة البصر ودوره فى الحب،ورأيه قاطع بأن الإدراك الحسى على تنوعه إن لم يوافق أخلاق النفس فهو ما يزال قرين الشهوة لا أكثر أما إذا توافق الاثنان فإن للإدراك الحسى حالتئذ دور أكثر أهمية ووقعه على نفس المحب أقوى ــــــ كما ذكرنا ــــــ ولذا يفرق ابن حزم بين وظيفة الإدراك الحسى بعد المحبة المتأكدة ووظيفة الإدراك غير المسبوق بمحبة، فالأخير هو من قبيل الشهوة ــــــ كما سبق ــــــ أما الإدراك بعد المحبة فابن حزم يحكى عن نفسه " وعنى أخبرك أنى ما رويت قط من ماء الوصل وإلا زادنى إلا ظمأ... الخ (١).

ورؤية ابن حزم عن دور الإدراك الحسى فى الحب وعلاقته بالنفس إذا قارناه بغيره ممن سبقوه فى هذه الدراسة نجدها لا تختلف فى كون الإدراك وحده لا يكفى لأن يكون سببًا للحب وأنه حليف الشهوة، ولا يختلف أيضًا فى أهمية هذا الإدراك بعد المحبة المتأكدة، فابن سينا مثلًا يقول " وعشق الصورة الحسنة من الإنسان قد تتبعه أمور ثلاثة: أحدهما حب معانقته، والثانى حب تقبيله، والثالث حب مباضعته، فأما حب المباضعة مما يتيقن عنده أن هذا العشق ليس خاصًا إلا بالنفس الحيوانية... اللهم إن قصد به توليد المثل ولا ينساغ هذا القصد ولا يستحسن إلا للرجل فى إمرأته أو مملوكته "(٢) وابن سينا هنا يجعل من المباضعة غرضًا دنيويًا حيويًا ودينيًا هامًا وهو الاستخلاف فى الدنيا إلا أن تعبيره فى ذلك بلهجة فلسفية بعيدة عن الأسلوب الدينى وإن كان

(١) "طوق الحمامة " باب " الوصل" ص ٧٤ .

(٢) "رسالة فى ماهية العشق " لابن سينا ص ١٩.

الهدف واحدًا، ويستأنف ابن سينا كلامه عن المعانقة والتقبيل ويتحدث عن وقعهما على نفس المحب بمعنى لا يختلف عن قول ابن حزم السابق فيقول: " وأما المعانقة والتقبيل فإذا كان الغرض فيهما هو التقارب أو الاتحاد وذلك لأن النفس تود أن تنال معشوقها بحسها اللمسى نيلها بحسها البصرى فتشتاق إلى معانقته وتنزع إلى أن يختلط نسيم مبدأ أفاعلية النفسانية وهو القلب بنسيم مثله من المعشوق فتشتاق إلى تقبيله فليسا بمنكرين فى ذاتيهما لكن استتباعهما بالعرض أعنى أمورًا شهوانية فاحشة توجب التوقى عنهما"(١).

أما إخوان الصفا فقد استفاضوا فى شرح عملية الإدراك الحسى وأهميته لدى المحبين شرحًا مطولًا أقرب إلى التحليل البيولوجى وأثر هذا الإدراك على مزاج الأبدان، ومن ثم مردوده على النفس إذ أنها تتبع مزاج البدن فى إظهار أفعالها وأخلاقها ويرون أن هذا الإدراك يتولد عنه العشق والمحبة (٢).

أما عن حاسة السمع فابن حزم لم يغفل الحديث عنها، فإن كان جازمًا فى أن البصر وحده ضربًا من الشهوة، فإن السمع وحده ضربا من الوهم وبنيان بغير أساس ويرى أن " من غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الإبصار"(٣) وإن كان ابن حزم يرى وقوع المحبة بالوصف أمرًا غريبًا إلا أنه لا

(١) م.س ص ٢٠ .

(٢) "رسالة إخوان الصفا فى ماهية العشق " ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٣) "طوق الحمامة" لابن حزم باب "من أحب بالوصف " ص ٢٥ .

ينكر أثر الوصف على النفس وهذا أمر معلوم وكثيرًا ما يتحقق فيقول: " فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيرًا فى النفس ظاهرًا وأن تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سببًا للحب واشتغال البال"(١) ولا شك أن ابن حزم يقصد هنا وكما أوضحت من قبل أن التعبير بالحب هنا على سبيل المجاز بدليل أنه يعتبر الحب الناشئ عن السمع بنياناً بغير أساس فكيف ينهض لأن يكون سببًا،وحجة ابن حزم فى ذلك " أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره، ولا يتمثل فى هاجسه غيرها قد مال بوهمه نحوها فإن وقعت المعاينة يومًا ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية"(٢).

(١) م. س . نفس الموضع

(٢) م. س. نفس الموضع

(ثانيًا: علاقات ذات طابع إنسانى)

لا نستطيع ونحن بصدد دراسة " طوق الحمامة " أن نغفل هذا الجانب الإنسانى أو إن شئت قل " النفسانى" للحب وعلاقته بغيره من الأمور لما له من أهمية قصوى فى مجال البحوث النفسية، إلا أنى سأكتفى بإلقاء الضوء عليه فقط إتماما للفائدة دون دراسته لبعده عن مجال التخصص.

وهذه العلاقات على سبيل المثال:

١ - علاقة الحب بالفطرة

٢ - علاقة الحب بالشهوة

٣ - علاقة الحب بالغيرة

٤ - علاقة الحب بالسعادة

٥ - علاقة الحب بالاستقرار النفسى

٦ - علاقة الحب بالقلق

٧ - علاقة الحب بالمرض

٨ - علاقة الحب بالجنون

٩ - علاقة الحب بالألم

١٠ - علاقة الحب بالقلب

المبحث الثالث

خصائص الحب الإنسانى عند ابن حزم

فى هذا المبحث سنعرض لأهم خصائص الحب الإنسانى عند ابن حزم دون الالتفات للتبويب الذى ورد " بالطوق " فإن كثيرًا من هذه الأبواب قد مرت دراستها فى مواضع متفرقة من هذا البحث، وظفتها بما يتوافق مع خطتى فيه فلا داعى لتكرارها، وأولى هذه الخصائص:

المطلب الأول: ماهية الحب

ليست مصادرة منى أن أصرح أن التجربة، والتجربة وحدها هى الانعكاس الحقيقى والمباشر والمرآة التى نرى على صفحتها حقيقة لم تزل غامضة إلا فى عين صاحبها وقد لا يستطيع التعبير عنها أحيانا، وهذه الحقيقة التى أراها نوعًا من التصوف أو التفلسف العميق مع الذات ومع الآخر، هى حقيقة المحبة، تلك الحقيقة التى يصعب على البشر تفسيرها طالما أنها وليدة لخبرة الفرد الواحد وتجربته الذاتية، ومادام الأمر كذلك ستتعدد حتمًا التفسيرات على قدر تعدد الخبرات، وحقيقة المحبة مثلها فى ذلك كالفلسفة والتصوف، فهما ثنائى يبدو فى جوهرهما المحبة، وفى ظاهرهما خبرة من عايشهما فيصعب تعريفهما(١)، وكذا الحب، يصعب تعريفه ويتعدد إما نظرًا لتعدد الخبرات أو أن يفقد المحب

---

(١) أما الفلسفة إنما تنطوى على محبة الحكمة ، وظاهرها تلك الرؤية الذاتية التى يتفرد بها هذا الفيلسوف أو ذاك بخبرته ويقينه أو حتى خيالاته ،وعليه لا نستطيع تعريف الفلسفة بدقة لتعدد رؤى وخبرات الفلاسفة، والتصوف كذلك جوهره المحبة وظاهره معاناة العاشق الخاصة بذات المحبوب وتلون خبرته بقدر اشفافاته ورقيه الروحى رغبة منه فى الاتحاد به ،وعليه لا نستطيع تعريف التصوف بدقة.

القدرة على التعبير، وهذه مشكلة فى حد ذاتها، وإما لاختلاف البيئة والثقافة والديانة والعادات واختلاف العصر بل اختلاف الأشخاص فى العصر الواحد، كما تختلف التعريفات نظرًا لاختلاف التوجهات، فالتعريف الذى يأتى به الشاعر غير الذى يأتى به الفيلسوف أو الطبيب أو العالم النفسانى أو الاجتماعى. وهكذا.

ومشكلة أخرى ستواجهنا إذا أردنا تعريف الحب، أن الحب ليس له جنس أو فصل فيعرف بحده وتمامه، ولو كان له ذلك لما توارثنا هذا الكم الهائل من التعريفات، ولما تكلفنا كل هذا العناء فى البحث عن ماهيته وتفسير حقيقته.

وهذا المبحث ليس محاولة منى لكى اكتشف تعريفًا جديدًا للحب أو أدعى أن هناك قولًا فصلًا فى هذه المسألة، ولكنه محاولة لتحليل ما قاله ابن حزم فى ذلك، وما رآه هو صائب أو قريب من الصواب مقارنة بغيره من الإسلاميين(١) كما هو جارى العادة فى هذا البحث المتواضع أملا منى فى أن أقدم الجديد فيما قاله الفقيه الإمام ابن حزم.

لقد راعى ابن حزم كعادته الشكل المنهجى السليم فى البحث لما له من عقلية منظمة واستهل حديثه فى الحب بالكلام عن ماهيته وهو مدرك فى ذلك لأبجديات البحث والتى منها تحديد ماهية الشئ الذى يريد

---

(١) وإنما قصدت مقارنة ابن حزم بالمسلمين فقط بهدف تأصيل فكر الإمام بين علماء الإسلام بالإضافة للمأدبة بوجه خاص من الفكر اليونانى لخصوصية هذه المحاورة الهامة ولريادتها فى هذا المجال ، أما الغربيون فقد تكفل بمقارنتهم بابن حزم أ.د/ زكريا إبراهيم فى كتابه الشيق " مشكلة الحب" حيث اختص بدراسته ما كتبه الغربيون فى هذه المسألة بالإضافة إلى المأدبة " كذلك (فليراجع).

التحدث عنه قبل البدء فى التحدث عن باقى خصائصه.

وبادئ ذى بدئ ينبه القارئ فى مقدمة الكتاب أثناء تقسيم أبوابه إلى أن الحب عرض وأن العرض لا يحتمل الأعراض اللهم إذا كان ذلك على سبيل المجاز اللغوى فى إقامة الصفة مقام الموصوف، فيحق لنا حالتئذ أن نصف الحب بأعراضه.

وابن حزم يشير فى مستهل كلامه إلى صعوبة تعريف الحب فيقول: " الحب ــــــ أعزك الله ــــــــ أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة"(١).ومعنى ذلك أنه يرى أن للحب معان كثيرة، وينبهنا لهذه الكثرة، ونظرًا لجلالة هذه المعانى استترت وغابت عن الإفهام فلا ينالها الوصف ولا تدرك حقيقتها إلا بمعاناة المحبين أنفسهم،ولذا فما يدركه هذا المحب قد يدرك غيره محب آخر، ولذا كان أمرًا شاقًا لمن أراد أن يُعِّرفه بحقيقته،وهذا الاستهلال من ابن حزم يوحى بعدة أمور: إما أن يترك أمر التعريف لمن خاض بنفسه تجربة الحب ممن عاصره ليقدم لنا معاناته، وخاصة أنه اتبع فى كتابة المنهج الاستقرائى، وإما أن يقدم لنا تعريفًا من خلال معاناته هو على سبيل "الاستبطان" وخاصة أنه لا يجد تحرجا ولا مضرة من ذلك، وإما أن ينقل لنا معاناة الغير ممن لم يعاصروه وهو ما نص عليهم فى مقدمة كتابه أنه سيقتصر على ما "صح عنده بنقل الثقات" ويبدو أن أفلاطون واحد من أهم من نقل عنهم هؤلاء الثقات، وإما أن يكف عن تقديم أى تعريف وخاصة أنه لم يأت بهذا الحشد من التعريفات كالذى

---

(١) "طوق الحمامة " ابن حزم الأندلسى باب "ماهية الحب " ص ٦ .

ورد على سبيل المثال بكتاب " الزهرة" لابن داوود، أو كالذى ورد برسالة إخوان الصفا، ومن المتأخرين عليه ابن الجوزى في كتابه " ذم الهوى" وابن قيم الجوزية في كتابه "روضة المحبين".

والواقع أن ابن حزم لم يقدم لنا تعريفاً لأحد لا ممن عاصروه ولا عن غيرهم مما صح عنده النقل عنهم بل قدم لنا تعريفاً واحدًا بعد ملاحظته اختلاف الناس فى ذلك فقال: " وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع"(١). والذى أذهب إليه أن هذا التعريف ترجيح من ابن حزم لما أطال الناس القول فيه لا تعريف جديد منه، وأن هذا التعريف الذى قدمه لنا هو ملخص ومضمون ما قاله أريستوفان وهو أحد شخصيات" المأدبة" الشهيرة حيث أجرى أفلاطون على لسانه هذه العبارات "..وفى هذه الظروف شطر الكائن الطبيعى بالتقسيم شطرين، وحينئذ كان كل نصف يتوق إلى نصفه، ويلحق به،ويلف كل منهما ذراعيه حول جسد الآخر راغبين ألا يكونا سوى كائن واحد.. فمن الأكيد إذن أن حب البشر بعضهم لبعض تأصل فى قلوبهم منذ ذلك الوقت السحيق ذلك الحب الذى يجمع شمل طبيعتنا الأولى، وهو الحب الذى يسعى إلى أن يجعل من مخلوقين مخلوقا واحدا، ويصير على هذا الوجه شفاءًا للطبيعة البشرية" (٢).

والذى يؤكد أن هذا التعريف الذى قدمه ابن حزم هو ملخص قول

(١) م.س ص ٧.

(٢) " المأدبة ، أو فى الحب لأفلاطون" د/ على سامى النشار وآخرون ص٤٥.

أفلاطون، الشرح الذى قدمه عقب هذا التعريف لأنه يقرر فى مجموعة من العبارات "أن سر التمازج والتباين إنما هو الاتصال والانفصال والشكل دائمًا يستدعى شكله، والمثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر فى الأضداد والموافقة فى الأنداد، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافى الخفيف، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار"(١) وهذه العبارات التى ذكرها ابن حزم فى هذا الشرح هى أيضا مضمون لمجموعة من عبارات متناثرة من " المأدبة" منها على سبيل المثال عبارات لأريستوفان إذ يقول " إن لكل واحد منا تبعا لذلك جزء مكمل وقسيم لإنسان قطع على الطريقة التى قطع عليها نوع من سمك موسى وهو نصف شئ واحد وينتج عن ذلك أن كل قسم دائب فى البحث عن الجزء المكمل له أى عن نصف ذاته.. وإذا وضعت المصادفة إذن فى طريقى كل واحد النصف الذى هو موضوع الحديث، وهو بالتحديد نصف ذاته حينئذ ينتابهم جميعًا شعور مدهش جدا، شعور بالصداقة والقرابة والحب، وهم يأبون إن جاز التعبير أن يسمحوا أن نفصل أحدهما عن الآخر ولو لفترة وجيزة... والذى يفسر فى الواقع هذا الشعور هو طبيعتنا الأصلية تلك التى ذكرتها منذ قليل وهى أننا قطعة واحدة، ولذلك فإن رغبتنا فى هذه الوحدة ومحاولتنا الحصول عليها هو ما نسميه الحب(٢).

---

(١) "طوق الحمامة " لابن حزم ص ٧ .

(٢) "المأدبة " لأفلاطون ص ٤٠ وما بعدها .

ومنها كذلك عبارات من الخطبة التى ألقاها أجاتون تعليقًا على عبارات أريستوفان التى ذكرتها منذ قليل فيحدثنا أريستوفان عن طبيعة الحب فيقول "إن الشبيه يقترب دائما من شبيهه"(١) ويصف الحب فى موضع آخر " إنه هو الذى يحررنا من الاعتقاد بأننا غرباء فيما بيننا، وهو الذى يجعلنا نفيض بالاعتقاد بأننا ذوو قربى لأننا فى ظل قانونه يجتمع دائمًا بعضنا مع بعضنا الآخر فى اجتماعات مماثلة لهذا الاجتماع"(٢).

ويذكر ابن حزم أن تعريفه الفلسفى هذا يختلف عن التعريف الذى أورده ابن داود عن أهل الفلسفة " أن الأرواح أكره مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها العلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها"(٣)، والحق أن التعريفين أفلاطونيان ـــ ما فى ذلك ريب ـــ إلا أن تعريف(٤) ابن داوود أقرب شبهًا من أسطورة الخلق اليونانية فى حين جاء تعريف ابن حزم مختصرًا، كما أن ابن داوود لم يشأ أن يرد هذا التعريف لأصول دينية كما فعل ابن حزم بل ذكره وغيره دون تعليق أو حتى ترجيح فضلًا عن أن يأتى بجديد. أما ابن حزم فقد

(١) م. س ص ٥٤ وما بعدها .

(٢) م. س نفس الموضع .

(٣) "طوق الحمامة " لابن حزم ص ٧ .

(٤) ونص تعريف ابن داوود كما ورد بكتابه "الزهرة" : "زعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضا فجعل فى كل جسد نصفًا ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طباعهم " " الزهرة " لابن داوود الظاهرى ج١ ص٥٤.

كانت له رؤية خاصة ومحاولة اجتهادية تشبه إلى حد كبير محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة فحاول مزج التعريف بالنص الدينى مشيرًا فى خفاء على أنه لا تعارض بينهما، وإنى لأراها خطوة من ابن حزم كان من الممكن الاستغناء عنها حيث لجأ فى بيان تعريف الحب إلى الأصول اليونانية،وكان من الأولى الاكتفاء بالنصوص الدينية وحدها دون التعلق بأهداب أقوال القدماء. فمنهجه غير منهجهم ومصادره غير مصادرهم ويبدو أنها قد جرت عادة علماء المسلمين على الاستئناس بأقوال حكماء اليونان، وإنى لأراها عادة ليست لها ما يبررها سوى اعتيادهم على قوة تأثيرهم حتى ولو لم تقتضى الحاجة لذلك، وذاك واحد من شخصيات المأدبة وهو أجاتون ينقض هذه الأسطورة بقوله: " على فرض أن رواياتهم صحيحة، فإن تلك الحوادث المتعلقة بتقطيع الأطراف والسلسلة المتبادلة وكل أعمال العنف الكثيرة هذه لم تكن لتقع إذا كان الحب موجودا بينهم "(١) ويصف خطبته التى حكى من خلالها هذه الأسطورة أنها خليط من الخيال فى بعض المواطن،ومن الجد فى مواطن أخرى، فما الذى يدعو ابن حزم وغيره بالتمسك بهذه الخيالات بل تعزيزها بالنصوص الدينية، حيث قدم لنا الآية الكريمة بعد بيانه لسر التمازج والتباين فى المخلوقات ويرى أن " كل ذلك معلوم بالفطرة فى أحوال تصرف الإنسان وزوجه فيسكن إليها والله عز وجل يقول: " هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها " فجعل علة

(١) " المأدبة" لأفلاطون ص ٥٤.

السكون أنها منه" (١)، وإن كان لى بعض المآخذ على ابن حزم فى توظيفه لهذه الآية الكريمة بهذا الشكل الأفلاطونى فالآية الكريمة لا تدل على مبدأ المحبة وإنما تدل على مبدأ الخلق والمقصود منها كما فسرها الإمام الزمخشري أن الله تعالى خلقنا " من نفس واحدة وهى نفس آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) وهى حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله جعل لكم من أنفسكم أزواجا (ليسكن إليها) ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس وإذا كانت بعضًا منه كان السكون والمحبة أبلغ"(٢) والذى استنبطه من كلام الزمخشرى أن "من " التى وردت بالآية الكريمة تبعيضية والتبعيض لا يعنى الانقسام،كما أن الخطاب موجه فى الآية لجميع الخلق بدليل صيغة الجمع فى قوله تعالى: " خلقكم " أى خلقكم جميعًا من آدم وهو نفس واحدة بدليل صيغة الإفراد فى قوله تعالى: " نفس واحدة" وعود الضمير فى "منها" راجع على هذه النفس بالذات التى منها خلقت حواء بالذات زوج آدم ومنها نشأت ذرية آدم.

هذا هو المراد من الآية، وهذا إنما يعنى انبثاق الكل عن الواحد بمعنى النشأة لا بمعنى انبثاق كل اثنين من بعضهما على الطريقة الأفلاطونية، وإن كان هناك دلالة فى الآية على مبدأ المحبة فهى كما ذكرت محبة آدم لحواء بعد أن خلقت منه ليؤنسه الله بها دفعًا لوحشته، ولا ينطبق هذا على كل اثنين متحابين على الأرض.

---

(١) "طوق الحمامة " لابن حزم باب " ماهية الحب " ص ٧.

(٢) "تفسير الكشاف " للإمام محمود بن عمر الزمخشرى ج ٢ ص ١٠٨.

ويبدو أن ابن حزم رأى أن من الأحوط تقديم دليل آخر فى هذا المقام إلا أنه عرضه بنفس الطريقة التى عرض بها الآية الكريمة أى لتدعيم رأى أفلاطونى آخر فيقول:"أنك لا تجد اثنين متحابين إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لا بد فى هذا وأن قلَّ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة هذا نراه عيانًا، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف "، وقول مروى عن أحد الصالحين: أرواح المؤمنين تتعارف "(١)، وهذه الفقرة لابن حزم تدل على قناعته برأى أفلاطون فى كون المشاكلة واتفاق الصفات من دواعى المحبة لأن هذا الرأى فى الأصل لأفلاطون، وإن كنت أرى أنه لم يكن هناك داع لإقحام رأى أفلاطون مع الحديث النبوى، لأن الحديث وحده يكفى للاستدلال على وجود المحبة بين الأرواح، كما أنه كاف ليوقفنا على العلة التى تنشأ عنها المحبة فيخبرنا أن سر الائتلاف والاختلاف بين الأرواح إنما هو التعارف والتناكر وهو بعينه معنى قول ابن حزم السالف الذكر أن " سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال... الخ إلا أن الحديث أقرب وأيسر فهمًا بكثير مما قاله أفلاطون من انقسام النفوس،وما كان لابن حزم أن يعتمد عليه فى تعريفه وخاصة أنه بعيد عن التصور الدينى لخلق النفوس وكما يقول ابن قيم أن هذا القول " مبنى على قولهم الفاسد بتقدم النفوس على الأبدان" (٢). يقصد الفلاسفة.

---

(١) " طوق الحمامة " لابن حزم ص ١٠ .

(٢) " روضة المحبين ونزهة المشتاقين " ابن قيم الجوزية ص ١٠٩ .

وعلى أى حال فإن محاولات ابن حزم فى تحليل ماهية الحب جاءت أكثر جدية عن غيره من المتقدمين عليه ممن كتبوا فى الحب، فالجاحظ مثلًا لم يقدم تعريفًا للحب بل ذكر أنه " أصل الهوى، والهوى الذى يتفرع منه العشق، والعشق الذى يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمدًا على فراشه(١) "، وهذا كما يبدو ليس تعريفًا للحب بماهيته بل بأعراضه، غير أنه غير كاف فى إيضاح هذه الأعراض، وأن ما ذكر هو مراتب الحب وليس ماهيته، ثم عرّفه ثانيًا بتعريف أشبه بالتعريفات اللغوية " وإنما العشق اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه حب وليس كل حب يسمى عشقًا " (٢).

أما إخوان الصفا فهم بعد عرضهم لآراء القدماء فى تحديد ماهية الحب ذهبوا إلى أن " العشق هو شدة الشوق إلى الاتحاد"(٣) وأن هذا القول أرجح ما قيل فيه، ولا شك أن هذا التعريف الذى يميل إليه الإخوان ينتمى دون ما شك إلى المدرسة الأفلاطونية الحديثة وعليه فلم نجد فيما قالوه جديدًا.

أما المتأخرون عن ابن حزم فأشهرهم ابن الجوزى وابن قيم الجوزيه أما الأخير فقد جمع فى كتابه " روضة المحبين " معظم ما قيل فى تعريفات الحب قديمًا وحديثًا دون دراسة أو تحليل كما لم يقدم لنا تعريفًا جديدًا يحدد ماهية الحب، إلا أنه استفاض فى البابين الأول والثانى من كتابه المذكور فى الحديث عن أسماء المحبة واشتقاق هذه الأسماء

(١) " رسالة الجاحظ فى العشق والنساء " ص ١٣٩ .

(٢) م.س. نفس الموضع.

(٣) راجع رسالة إخوان الصفا فى" ماهية العشق" .

ومعانيها فى اللغة، وهذه بلا شك دراسة لغوية بعيدة عن التعريف الحقيقى الباحث فى الماهية.

أما ابن الجوزى فقد نبه فى بداية كلامه فى ذكر ماهية العشق " على اختلاف كلام الناس فى ذلك وأن أكثرهم سموه باسم سببه أو باسم ما يؤول إليه "،وهذا كل ما أتى به من تحليل قبل البدء فى ذكر هذه الأقوال والتى بدأها بكلام الأوائل وهم تحديدا: أفلاطون ويوذجانس وأرسطوطاليس وفيثاغورث ثم مجموعة من كلام الإسلاميين ولم يعلق على أية تعريف إلا أنه ختمها فيما يبدو بالراجح عنده فقال " والتحقيق أن العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلاءم طبعها، فإذا قوى فكرها فيها تصورت حصولها وتمنت ذلك، فيتجدد من شدة الفكر مرض(١)"، وفيما يبدو فإن التعريف لا يخرج عما قالوه القدماء عن فكرة اتصال النفوس والاتحاد فى الطبائع.

وابن حزم حينما ينتهى إلى القول بأن الحب " استحسان روحانى وامتزاج نفسانى" وحينما ينتهى إلى القول بأن اتصال النفوس هو جوهر المحبة فإن هذه المذاهب رغم أنها أفلاطونية المنشأ ــــــ ولا عيب فى ذلك ــــــ إلا أنه مضى بها جنبًا إلى جنب مع مذهبه العام فى موضوع الحب ويبدو هذا مثلا فى التفرقة بين الحب والشهوة، ومع فكرته أيضًا بعلاقة الحب بالجمال كما أنه وظف فكرة اتصال النفوس توظيفا حسيًا معتمدًا فى ذلك على العلاقة بين الاستحسان الطبيعى للصور وتحوله من مجرد استحسان إلى محبة حقيقية إذا أحس المرء

(١) "ذم الهوى " أبو الفرج ابن الجوزى ص ٢٦٢ .

بالمشاكلة والاتفاق مع صاحب هذه الصورة (١).

ويبدو واضحًا اتساق أفكار ابن حزم مع آراء أفلاطون حينما أورد اعتراضًا بأن فكرته ـــــ وهى فكرة أصيلة له ـــــ وهى أن الحب الصادق لا يكون إلا مع المطاولة قد يتعارض مع ما ورد فى صدر رسالته بأن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العلوى ـــــ وهى فكرة أفلاطون ـــــ ويرد على هذا الاعتراض بثقة بأن قوله يؤكد قول أفلاطون ويجيب عن ذلك بأن "النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ولحقتها الأغراض وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية فسترت كثيرًا من صفاتها وإن كانت لم تحله لكن حالت دونه فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يشابهها من طبائع المحبـــوب، فحينئذ يتصل اتصالًا صحيحًا بلا مانع"(٢). كما أنه يعزو هذه الفكرة ويجد لها أثرًا فـــى التوراة(٣) ويذكر حكاية وردت به تدل على نفس الفكرة وجعلنا نستنبط معه أنها ليست حكرًا على أفلاطون. وذكر قصة عن بعض القافة(٤) " أنه أتى بابن أسود لأبيضين فلما دخل البيت الذى كان فيه مضجعهما رأى فيما يوازى نظر المرأة صورة أسود فى الحائط فقال لأبيه: من قِبَل هذه

(١) راجع "علاقة الحب بالجمال " من هذا البحث .

(٢) " طوق الحمامة " لابن حزم باب " من لا يحب إلا مع المطاولة " ص ٣١ .

(٣) م. س باب "ماهية الحب" ص ١١ .

(٤) القافة: الذين يتعرفون على الشخص وينسبونه لأصله بناء على ما فيه من صفات تتوافق مع ذلك الأصل.

الصورة أتيت فى ابنك "(١).

ومما يؤكد أن ابن حزم كان أصيلًا فى مناقشاته وتحليلاته طرحه لقضايا جديدة ذات جِدة وطرافة فعلى سبيل المثال يورد استشكال مؤداه: أنه ما دام الحب استحسان روحانى وامتزاج نفسانى ـــــ على فرض نسبة هذا الرأى لأفلاطون ـــــ فهل المحبة بناءًا على ذلك تستوى بين الشخصين المتحابين "إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال وحظهما واحد "(٢)؟ ويجيب عن ذلك إجابة مطولة تلخيصها كما قال: أن " نفس الذى لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تحس بالجزء الذى كان متصلًا بها قبل حلولها حيث هى، ولو تخلصت لاستويا فى الاتصال والمحبة (٣).

ويبدو أنه ستظل مشكلة تعريف الحب قائمة، وستظل حقيقته غامضة غموض المحبة نفسها مادام الأصل فى ذلك معاناة الفرد كما نبهنا على ذلك ابن حزم فى مستهل كلامه،وعلى ذلك فإن فصل القول لا بد أن يرتد إليه ـــــ أى ذات المحب ـــــ وبناءًا على ذلك فإن كل ما قيل فى تعريف الحب لابد من الاعتراف به، كما يجب أن نعترف أن السبب فى المحبة هى الإرادة الإلهية وحدها ولا مدخل فيها لشئ إذ لو كان الانقسام كما قيل فما الذى يبرر تمالؤ جماعة على حب شخص واحد مثلًا، والعكس وهذا ما لم يجب عنه أصحاب فكرة الانقسام. ويبدو أن ابن حزم أراد أن يختم باب " ماهية الحب " كما بدأه وكأن لسان

(١) "طوق الحمامة " باب "ماهية الحب " ص ١١ .

(٢) م. س ص ٩ .

(٣) م. س ص ٩ .

حاله ينطق بعدم جدوى التعريف فكما استهل الباب بعبارته السابقة " الحب ــــــــ أعزك الله ــــــــــ أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ".اختتم الباب بقوله " والحب أعزك الله داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة، ومقام مستلذ وعلة مشتهاة لا يود سليمها البرء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة يزين للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عنده، حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة " فهو كما يصف الحب يصف فعله وأثره فى نفوس المحبين. وابن حزم بلا شك يخلع على الحب دورًا إيجابيًا فى أخلاق الفرد وتطويع النفوس إلى أفضل مما كانت عليه من قبل.

والطريف أن ابن حزم بعد أن تبنى فكرة اتصال النفوس فى كتابه " الطوق " محللًا ومناقشًا فى صدر حياته عاد ليقرر فى أخرياتها فى رسالته " مداواة النفوس " أن المحبة كلها جنس واحد ورسمها أنها الرغبة فى المحبوب، وكراهية منافرته، والرغبة فى المقارضة منه بالمحبة "(١)، ويبدو من التعريف صعوبة تعريف الحب بحده التام ويقرر ابن حزم أنه إنما يعرف برسمه فقط، ولكن تعريفه هذه المرة يبدو وقد تخلص من كل شائبة أفلاطونية وهذا التعريف يتلائم تمامًا مع رؤيته الواقعية فى الحب والتى وردت بكتابه الفريد " طوق الحمامة".

المطلب الثانى: أنواع المحبة

لم يشأ ابن حزم أن يفرد بابًا من" الطوق " لذكر أنواع المحبة

---

(١) رسالة "مداواة النفوس " لابن حزم الأندلسى ص ١٢٩.

كباقى الموضوعات المتعلقة بالحب، ربما كان السبب فى ذلك أنه خصص كتابه لتحليل عاطفة الحب بين الرجل والمرأة بوجه خاص فلم يكن فى حاجة إلى الحديث عن بقية أنواع المحبة إلا أنه ذكرها بشكل عرضى وفى إلمامة خاطفة حتى يسوق الحديث ليصل إلى العشق " الذى هو موضوع الكتاب، ولذا نراه يذكر أنواع المحبة فى فقرة قصيرة ضمن باب "ماهية الحب" فيقول:" المحبة ضروب: فأفضلها محبة المتحابين فى الله عز وجل، إما لاجتهاد فى العمل، وإما لاتفاق فى أصل النحلة والمذاهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان،ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة،ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه،ومحبة الطمع فى جاه المحبوب،ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس " (١) ويرى ابن حزم أن " كل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة ببعدها، حاشى محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهى التى لا فناء لها إلا بالموت "(٢).

والصداقة هى أول نموذج لأنواع المحبة يطلعنا عليه ابن حزم، وهو النوع الوحيد المغاير للعشق الذى يكثر ابن حزم الحديث عنه وعن شواهده فى أكثر من موضع من الكتاب، ففى المقدمة يحدثنا عن صديقه ويثنى عليه ويتمنى له دوام حسن الحال ويخبرنا ـــــــ كما سلف

(١) "طوق الحمامة" لابن حزم باب "ماهية الحب" ص ٨ .

(٢) م.س نفس الموضع .

- أنه ألف كتابه بتكليف من هذا الصديق كما يقول فيه أبياتًا من الشعر تدل على مودته له.

وإن كان ابن حزم لم يستفض بالقول عن " أنواع المحبة" فى الطوق " نجده فى رسالته " مداواة النفوس " يخصص فصلًا مستقلاً " فى أنواع المحبة "، فيذكر أن المحبة " تكون لله (عز وجل) وفيه، وللاتفاق على بعض المطالب وللأب، وللابن، وللقرابة، وللصديق، وللسلطان، ولذات الفراش، وللمحسن، وللمأمول، وللمعشوق"(١)، ونجد أنه يبدأ أنواع المحبة بأفضلها وهو حب الله، وينتهى بالعشق على نفس ترتيب " الطوق" إلا أنه فى "رسالة المداواة " يزيد حب الأب، وحب الابن، وحب ذات الفراش، ويقصد بها الزوجة أو المملوكة، وابن حزم كما يلفت النظر فى "الطوق " إلى أن كل أنواع المحبة إذا كانت بسبب إنما تفنى بفناء ذلك السبب ماعدا " العشق "، نجده يلفت النظر فى "المداواة" إلى أمر آخر،وهو سبب اختلاف أنواع المحبة على الرغم من أنها كلها جنس واحد، ويرى "أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها، أو انحسامها.. فلذلك اختلفت وجوه المحبة"(٢).

المطلب الثالث: درجات المحبة

لم يعبأ ابن حزم بدراسة درجات المحبة فى كتابه " الطوق "، وما

(١) "رسالة مداواة النفوس " لابن حزم ص ١٢٩.

(٢) م . س . نفس الموضع .

قلناه فى المبحث السابق يقال هنا أى أنه أوقف كتابه على " العشق " وهو كما نعلم أحد درجات المحبة،وهو المراد وحده فى هذا الكتاب، إلا أن هذا السبب ليس وحده الذى دعاه لترك دراسة درجات المحبة، بل كان هناك أسبابًا أخرى أكثر أهمية مما ذكر، أما **أولها:** اختلاف المقصد، فالبحث فى درجات المحبة " كالاستحسان، والمودة، والكلف.. الخ يدعونا للبحث فى دراسة هذه الأسماء واشتقاقاتها فى اللغة خاصة وأن لكل اسم منها أكثر من معنى، وهذه بحوث لغوية لا يتسع لها المقام، كما أنها ليست مقصدا لابن حزم فى كتابه "الطوق".

وثانيا: اختلاف الناس فى ترتيب هذه الدرجات تبعًا لاختلاف أحوالهم فى الحب، وهذا الاختلاف ملحوظ جدًا فى كتب التراث اللغوى منها، وغير اللغوى، وهذه الأسباب ربما دعت ابن حزم لئلا يلتفت إليها فضلًا عن أن يخصص لها بابًا أو يذكرها مجملة كما فعل فى أنواع المحبة، إلا أنه ذكر كثيرًا من هذه الدرجات عبر الكتاب حسب السياق والمناسبة وليست مقصودة لذاتها فعلى سبيل المثال:

ذكر " الوله" وهو يتحدث عن " الضنى "(١) من أعراض الحب، كما يذكر "الألفة" فى باب "السلو" وإنى لأخبر عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية"(٢)

ويورد فى عبارة أخرى من "الطوق" درجات غير ما ذكر يقول فيها:".. لقد كاد قلبى أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى... ولقد

---

(١) "طوق الحمامة" باب "الضنى" ص ١٢٣ .

(٢) م. س باب "السلو" ص ١٢٩ .

امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفًا على لبى أن يزدهيه الاستحسان "(١). ونلحظ من العبارة ثلاث درجات للمحبة: ١- "الصبابة" ٢- "الهوى" ٣- "الاستحسان"، وفى موضع آخر يذكر "الكلف" فى بيت من الشعر(٢)، كما يذكر " الوداد " فى أكثر من موضع منها مثلًا بيتًا من الشعر يقول فيه:

ودادى لك الباقى على حسب كونه ∴ تناهى فلم ينقص بشئ ولم يزد(٣)

وفى موضع آخر يتحدث عن تحول المحبة إذا كانت فى غير ذات الله فيقول: "ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل... ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة "(٤)، كما يستدل على ذلك المعنى بقول الله تعالى: ﴿ يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا ﴾ (٥) ونلحظ من الآية الكريمة درجة أخرى من درجات المحبة وهى " الخلة".

ومن الملاحظ "بالطوق" أن ابن حزم يلحق " الهوى " بالحب المذموم فقط وأورده فى أكثر من موضع فى باب " قبح المعصية " وينص على النهى عنه فيقول: " وإن فيما ورد من النهى عن الهوى بنص التنزيل لشيئًا مقنعًا، وفى إيقاع هذه الكلمة، أعنى اسمًا على معان، واشتقاقها عند العرب، وذلك دليل على ميل النفوس وهويها إلى هذه

---

(١) م. س باب " قبح المعصية" ص ١٤٩.

(٢) م. س ص ١٥٢ .

(٣) م. س باب "ماهية الحب " ص ٨.

(٤) م. س باب " قبح المعصية " ص ١٥٧ .

(٥) سورة الفرقان آية رقم (٢٨) .

المقامات، وإن المتمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها (١)، وفى عبارة ابن حزم إشارة سريعة إلى أن هذه المقامات هى أيضا أسماء ذات معان واشتقاقات عند العرب كأنه يحيلنا فى دراسة هذه المعانى لمعاجم اللغة باعتبارها مبحثًا لغويًا قد يخرجه عن السياق.

وإذا كان منهج ابن حزم فى " الطوق " جعله لم يذكر درجات المحبة بشكل مستقل بل ذكرت كما رأينا حسب السياق، إلا أنه ذكرها مجملة فى رسالته " مداواة النفوس " وعرّف كل واحدة منها على حدة فقال: "درج المحبة خمس: أولها: الاستحسان، وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة، أو يستحسن أخلاقه،وهذا يدخل فى باب التصادق، ثم الإعجاب،وهو رغبة الناظر فى المنظور إليه،وفى قربه، ثم الألفة، وهى الوحشة إليه متى غاب، ثم الكلف، وهو غلبة شغل البال به، وهذا النوع يسمى فى باب الغزل بالعشق، ثم الشغف، وهو امتناع النوم، والأكل،والشرب، إلا اليسير من ذلك، وربما أدى ذلك إلى المرض، أو إلى التوسوس أو إلى الموت، وليس وراء ذلك منزلة فى تناهى المحبة أصلا"(٢).

وبالنظر إلى هذه الفقرة التى تحدث فيها ابن حزم عن درجات المحبة نجد أن هذه الدرجات هى التى بنى عليها ابن حزم نظريته فى الحب فى كتابه " الطوق " بدءًا من أسبابه وهو الاستحسان الطبيعى للصورة الحسنة ثم تدرج العاشق بعد ذلك فينتقل من الاستحسان إلى

(١) "طوق الحمامة " باب " قبح المعصية " ص ١٤٦.

(٢) "رسالة مداواة النفوس " لابن حزم الأندلسى ص ١٣٦ .

الرغبة فى رؤية المحبوب مرة ثانية، ثم ما يلبث أن يألفه ويكلف به على نحو ما ذكر ابن حزم "بمداواة النفوس" وفى "الطوق" أيضا،وقد يرق حال المحب فيمتنع عن المأكل والمشرب، وربما أدى به ذلك إلى الموت.

ورؤية ابن حزم فى عدم الاهتمام بدرجات المحبة فى " الطوق " هو ما نجد مثله أيضًا عند غيره ممن كتبوا فى الحب فالجاحظ مثلًا يذكر مراتب المحبة مختصرة وفى لمحة سريعة ففى رسالته عن "العشق" يذكر أن " الحب الذى هو أصل الهوى، والهوى الذى يتفرع منه العشق" فلم يذكر من درجات المحبة سوى "الهوى" و"العشق" واكتفى بذلك.

ومن الشواهد التى تدل على اختلاف العلماء فى عدد هذه الدرجات، على سبيل المثال: يذكر أبو بكر بن داود ثماني درجات هي: الاستحسان، والمودة، والمحبة، والخلة، والهوى، والعشق، والتتيم، والوله، وينبه على أن " الشوق تابع لكل واحدة من هذه الأحوال، والمستحسن يشتاق إلى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه، ثم كلما قويت الحال قوى معها الاشتياق"(١).

وكذلك إذا نظرنا فى رسالتى إخوان الصفا وابن سينا لم نجد إشارة على درجات المحبة بل ذكرت بهما أنواع المحبة فقط.

أما من المتأخرين على ابن حزم: فابن الجوزى مثلًا يعقد فصلًا قصيرًا من ورقتين بعنوان " مراتب العشق " نقل فيهما أقوال بعض العلماء بدأها بقول ابن داوود إلا أن لى بعض المآخذ عليه منها: أولًا: لم ينسب قول ابن داود له، ثانيًا: لم يقدم رأيه الشخصى بجانب هذه الأقوال،

(١) "الزهرة" أبو بكر بن داوود الظاهرى ج ١ ص ٦١ .

ثالثًا: العنوان "مراتب العشق" به خطأ معنوى لأن العشق درجة من درجات المحبة فكان الأولى أن يكون العنوان إن أراد "مراتب المحبة " فالعلماء وإن اختلفوا زيادة ونقصًا فى هذه المراتب إلا أنهم لم يختلفوا فى أن المحبة أصل يتفرع عنه أمور كأنواع المحبة أو درجاتها...الخ.

أما ابن قيم الجوزية فقد نص فى الباب الأول من كتابه " روضة المحبين " على خمسين اسمًا من أسماء المحبة،وتناول فى دراسة لغوية دقيقة معانى هذه الألفاظ واشتقاقاتها فى اللغة،وذكر أن هناك أسماء أخرى غير ما ذكر إلا أنها من موجبات المحبة، وأحكامها وليست من أسماءها فأغنانا (رحمه الله) عن ذكرها.

المطلب الرابع: علامات الحب

يعتبر باب " علامات الحب " من الأبواب الفريدة ليس " بالطوق " فحسب بل يعد كذلك فريدًا بين المؤلفات التى كتبت فى الحب الإنسانى قبل ابن حزم،فبعض هذه المؤلفات أغفل هذا الجانب والبعض الآخر ذكرها فى لمحة خاطفة،والبعض ذكرها على سبيل الاستقلال وأفرد لها عنوانًا، إلا أن ابن حزم يفوق هذه من حيث العرض والتحليل النفسى العميق لهذه العلامات ودراستها من جوانب جديدة لم يطرقها أحد قبله فكان " ابن حزم نسيجًا وحده فى كتابه "الطوق" لم ينقل عن أحد ولم يتأثر فى منهجه بقراءة، وترك أثره فيمن جاءوا بعده دون أن يبلغ أحد منهم مبلغه"(١) .

---

(١) "دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة " د/ الطاهر مكى ص ٣١٩

لقد عرض ابن حزم هذه العلامات عرضًا دقيقًا شيقًا غير مسبوق يدل على حدة ذكائه وقوة ملاحظته ودقة تحليله بالإضافة إلى رشاقة لفظه وجمال أسلوبه، وتدعيم آرائه بالشواهد عن نفسه وعن أصحابه كجارى عادته فى "الطوق" أن يأتى بمثل هذه الشواهد، ويرى ابن حزم أن هذه العلامات لا يلحظها إلا الفطن الذكى صاحب التمييز فيقول: " وللحب علامات يقفوها الفطن ويهتدى إليها الذكى فأولها إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهى المنقبة عن سرائرها،والمعبرة لضمائرها، والمعربة عن بواطنها فترى الناظر لا يطرف ينتقل بتنقل المحبوب، وينزوى بانزوائه ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس " (١)، فهذه أولى العلامات وهى "إدمان النظر" وابن حزم لا يقصد أن يتحدث عن النظر كواحد من أسباب الحب الذى هو "نظر الفجاءة " لكنه يتحدث هنا عن أمر آخر وهو إدمان النظر بمعنى أن صاحبه يديمه ولا يقلع عنه فهذا من العلامات وذاك من الأسباب، وابن حزم صاحب التحليل الواعى العميق يحلل خبايا النفس وتناغمها مع العين تناغم الدال بالمدلول فيرى أن العين مرآة تنطبع على صفحتها سرائر النفوس وضمائرها وأن كل ما تشرع فيه نفوسنا، العين تنقب معربة عنه فتدل للرقيب على ما يخبو فى صدر المحب تجاه المحبوب، ويشرح ابن حزم حال المحب بأسلوب على قدر عال من البلاغة فينقل لنا صورته وكأنك ترى انتقاله بانتقال المحبوب يتبعه حيث ذهب ويشبهه فى دأبه على النظر بالحرباء التى تتيم بالنظر إلى ضوء الشمس.

---

(١) "طوق الحمامة" لابن حزم باب " علامات الحب" ص ١٤

ونتابع مع ابن حزم بقية العلامات ومنها: "الإقبال بالحديث، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد غير ذلك، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه، والإنصات لحديثه إذا حدث،واستغراب كل ما يأتى به وكأنه عين المحال وخرق العادات،وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار، واتباعه كيف سلك وأى وجه من وجوه القول تناول "(١)، وهذه الفقرة غير ما بها من علامات دالة على المحبة بها قرائن هامة تدل على تأثير الحب فى سلوك المحب ومجانبته الصواب أحيانا موافقة للمحبوب،وهذا يدل دلالة واضحة على سلب حرية المحب – كما سبقت الإشارة إليه.

ومن جملة العلامات الذى ذكرها ابن حزم: " الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه، والتعمد للقعود بقربه،والدنو منه، وإطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه والاستهانة بكل خطب جلل داع إلى مفارقته،والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه.

ومنها: بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة، ومنها: اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة.

ومنها: أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعًا به قبل ذلك " (٢).

وكما يبدو من الفقرة السابقة لابن حزم أنه يفرق بين المحب

---

(١) م. س. نفس الموضع

(٢) م. س. نفس الموضع.

والمحبوب، ويجعل المحب نصب عينيه محلًا للدراسة لا المحبوب.

وابن حزم يفرق بين العلامات ما كان منها قبل الحب وما كان بعده" وهذه العلامات تكون قل استعار نار الحب وتأجج حريقه، وتوقد شعله واستطارة لهبه، فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارًا والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارًا.(١).

وبينما نرى ابن حزم يحلل علامات الحب بهذه الطريقة نرى الجاحظ يتساءل، وقد ضاقت به المصادر عن الإتيان بجواب ويخلط بين ما كان فعلًا للحب وبين ما كان من علاماته، ويأتى بفقرة لا تعدو ثلاثة أسطر هى كل ما قاله فى هذا الشأن "ولم أسمع ولم أقرا فى الأحاديث المولدة فى شأن العشاق،وما صنع العشق فى القلوب والأكباد والأحشاء والزفرات والحنين، وفى التدليه والتوليه متى تستعر الدمعة، ومتى يورث العين الجمود "(٢). وهذه الفقرة للجاحظ تنبأ عن كونه أول من كتب فى الحب من المسلمين العرب كما تدل على أنه لم يطلع على المأدبة ربما لم تكن قد انتقلت للعالم الإسلامى أو تكون قد ترجمت بعد.

وابن حزم وإن كان يرى أن أول علامات الحب " إدمان النظر " فلغيره رأى آخر فالوشاء مثلا يرى " أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم "(٣). وكذلك ابن داود، ويخصص بابا تحدث فيه عن علامات الحب وحصرها فى النحول فقط، وعنوان الباب كما ورد " بالزهرة" هو: " نحول الجسد من دلائل الكمد" وفسر النحول تفسيرًا طبيًا

(١) م . س . نفس الموضع ص ١٥.

(٢) "رسالة فى العشق والنساء" أبو عثمان الجاحظ ص ١٥٦ .

(٣) " الموشى أو الظرف والظرفاء " لأبى الطيب الوشاء ص ٧٦.

دون أن يعزوه لمصدره وحصر الأعراض كلها فى أربعة: نحول الجسم، وفيض الدمع، والامتناع عن الطعام والشراب، وضعف القوة ومرجع كل ذلك عنده الحزن والكمد(١).

أما ابن حزم فيواصل تحليلاته الإنسانية ويوقفنا على فيض آخر من تأملاته الذاتية مستلهمًا إياها مما رآه وتابعه بعين الناقد المحلل لا بلسان الناقل، ويواصل ما ابتدأه من علامات المحبة فيقول: " ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر الانبساط الكثير الزائد، والتضايق فى المكان الواسع،والمجاذبة على الشئ يأخذه أحدهما،وكثرة الغمز الخفى والميل بالاتكاء،والتعمد لمس اليد عند المحادثة،ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب فضله ما بقى المحبوب فى الإناء وتحرى المكان الذى يقابله فيه " (٢).

وهناك علامات أخرى كثيرة ذكرها ابن حزم منها:

"أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب، ومنها:الامتناع عن الطعام والوجوم والإطراق والتبرم، والضجر من السؤال،والقلق والبكاء، وحب الوحدة ونحول الجسم والسهر"(٣). فاعتبر نحول الجسم واحدة من الأعراض وليست كلها.

ويأتى ابن حزم بسيل آخر من علامات الحب لا أدرى كم أنفق من الوقت لملاحظة كل ذلك ويرى أن "الاستكانة لجفاء المحبوب أيضًا من علامات المحبة والجزع الشديد، وحمرة الوجه تعرض للمحب أيضا

---

(١) راجع " الزهرة " لأبى بكر بن داود الظاهرى ص ٤٠٠.

(٢) "طوق الحمامة" لابن حزم باب "علامات الحب" ص ١٦.

(٣) م . س باختصار وتصرف .

عند نفور المحبوب أو إعراضه،والزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصعداء،ومن علاماته أيضًا أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته"(١).

وابن حزم يرى أن هناك علامات للحب غير محمودة قد تصدر من أحد المحبين منها: " سوء الظن واتهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها إلى غير وجهها ويرى أن هذا من أضل العتاب بين المحبين " (٢).

ويختم ابن حزم حديثه عن علامات الحب "ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه وحفظه لكل ما يقع منه، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة،وتتبعه لحركاته، ولعمرى لقد ترى البليد يصير فى هذه الحالة ذكيًا، والغافل فطنًا " (٣).

وابن حزم يؤكد فى أكثر من موضع على الدور الإيجابى الذى يمليه الحب على صاحبه وكيف أنه قادر على أن يخلق منه شخصًا جديدًا.

وهكذا رأينا ابن حزم ينقل لنا هذه العلامات عن المحبين كل بحسب حاله شارحًا ومعلقًا تارة ومستنبطًا تارة أخرى، وهذا الباب تتجلى فيه الناحية الأدبية والنفسية بوجه خاص، وكان فيه ابن حزم محللا بارعًا فطنًا لما يجرى حوله من أمور وهذه الدراسة لعلامات الحب تفترق كثيرا عما قدمه أبوالطيب الوشاء فى كتابه " الموشى " إذا أردنا التحرى عما إذا كان ابن حزم أصيلًا فى مادته ومنهجه أم تأثر به

---

(١) م . س بتصرف ص ٢١ .

(٢) م . س ص ٢٢ .

(٣) م . س ص ٢٣ .

وخاصة أن " الموشى" ـــــــ فيما أعتقد ـــــــ هو الكتاب الوحيد قبل ابن حزم الذى خص " العلامات " بباب أو بالأحرى بعنوان جانبي، يقول أبو الطيب: "واعلم أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم وطول السقم واصفرار اللون، وقلة النوم، وخشوع النظر، وإدمان الفكر وسرعة الدموع وإظهار الخشوع وكثرة الأنين، وإعلان الحنين وانسكاب العبرات، وتتابع الزفرات "(١). ولقد دعم الوشاء ما ذكره ببعض الحكايات المروية عن بعض الاشخاص تدور كلها حول هذه العلامات التى لم يذكر غيرها بعيدة كل البعد عن الرؤية الذاتية التى تتضح " بالطوق" وبالنظر إلى فقرة الوشاء وما قدمه ابن حزم لن نأل جهدًا فى التأكيد على أن السابق لم يؤثر فى اللاحق لا من حيث المنهج أو الأسلوب ولا من حيث كثرة الملاحظات التى قدمها ابن حزم والتى تدل على عمق الدراسة والأصالة والإبداع ويكفى مثلًا على ذلك الجزء الذى تكلم فيه عن العلامات المتضادة (٢) فى الحب وما حظى به هذا الجانب من ابن حزم حيث تحليلاته النفسية الرائعة وملاحظاته الإنسانية الدقيقة.

ولا يخفى أثر ابن حزم على كثيرين كتبوا فى الحب بعد "طوق الحمامة" وعلى سبيل المثال فى كتاب "منية المحبين " فى الباب السادس من " المنية" وهو الخاص بعلامات الحب فقد اتكأ الشيخ مرعى طويلًا على كتاب ابن حزم ودون أن يشير إليه "(٣)، وكذلك ابن قيم فى "

(١) "الموشى" أبو الطيب الوشاء ص ٧٦.

(٢) راجع " الجانب المنطقى " الفصل الثاني من هذا البحث .

(٣) "دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة" د/ طاهر مكى ص ٣١٤.

الروضة " فى " الباب الخاص بعلامات الحب فكان فيه عالة على ابن حزم تمامًا ينقل عنه دون أن يشير إليه، ويستشهد به ذاكرا له فى أكثر من موضع " (١)، وكذلك ابن أبى حجلة فى كتابه "ديوان الصبابة " اعتمد على " ابن حزم فى أكثر من مكان وكان غرسيه غومث(٢)

فطنًا كعادته حين لحظ أن "باب علامات الحب " فى طوق الحمامة كان أكثر أبواب الكتاب ذيوعًا وتأثيرًا فيمن جاءوا بعده" (٣).

---

(١) م. س ص ٣٣٠ .

(٢) غرسيه غومث : مستشرق أسبانى له ترجمة لكتاب "طوق الحمامة" وله أيضا "كتاب سبق طوق الحمامة وكتاب جاء بعده" .

(٣) "دراسات عن ابن حزم " د/ طاهر مكى ص ٣٣٤ .

المطلب الخامس: علة الحب وأسبابه

الجمال جوهر المحبة ـــــــ لا شك فى ذلك ـــــــ فالنفس تولع به، تشتاق إليه، تحبه وترغب فيه، ولن يتأتى ذلك إلا حينما يتجلى الجمال فى شخص المحبوب، وهذه الرغبة من المحب هى علة المحبة، وهذا التجلى من المحبوب هو سببها، فالجمال يتردد فيكون تارة علة للحب، وذلك يرجع إلى النفس، وتارة أخرى فيكون سببا للحب وذلك يرجع لجمال المحبوب.

وفلسفة ابن حزم فى سبب المحبة وعلتها تدور حول هذا المعنى، وهو يفرق بين العلة والسبب ويؤكد على أن علة المحبة إنما تتبع من النفس إذ هى مبدأ المحبة عنده ولذا بدأ بذكر العلة قبل الشروع فى ذكر الأسباب فقال: " وأما العلة التى توقع الحب أبدًا فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شئ حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة "(١) ، وعبارة ابن حزم تعنى أن النفس لها دائمًا نزوع فطري للجمال وللحب معا سواء وجد الشخص الجميل (المحبوب) أم لم يوجد، وهذا المضمون الذى تحمله عبارة ابن حزم أعنى علاقة الحب بالجمال وولوع النفس بالصورة الحسنة يضرب بجذوره ـــــــ دون ما شك ـــــــ للفكر اليونانى وللمأدبة بوجه خاص، ولكن هل يتفق رأى ابن حزم مع أبطال المأدبة فى الغاية المرجوة من هذا الجمال ؟ هل تساءل كما تساءلت ديوتيم فى حوارها مع سقراط "ماذا يحب ذلك الذى

---

(١) "طوق الحمامة" لابن حزم باب "ماهية الحب" ص ١٠

يحب عندما يحب الأشياء الجميلة "(١) ؟ وهل انتهى به الحال كما انتهى عند سقراط واتفق معه بأن تكون هذه الأشياء الجميلة ملكًا له،وأن ذلك هو مبلغ السعادة ولا شئ بعد هذا ؟ أو كما قالت ديوتيم عن الحب " أنه رغبة الحيازة الدائمة لما هو طيب "(٢) ؟

يبدو أن ابن حزم كان أفلاطونيًا محضًا فى هذه النقطة بالذات ويبدو أنه كان أنانيًا فى حبه،على قدر إخلاصه، يؤثر نفسه وسعادته وإن كره المحبوب ذلك، وحواره مع صاحبه "أبو عبد الله محمد بن كلب " يؤكد ذلك حيث سأله يومًا ذلك الصاحب "وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه: إذا كره من أحب لقائى وتجنب قربى فما أصنع؟

قال ابن حـــزم: أرى أن تسعى فى إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره

فقال الصاحب: لكنى لا أرى ذلك بل أوثر هواه على هواى ومراده على مرادى وأصبر ولو كان فى ذلك الحتف.

قال ابن حزم: فقلت له: إنى إنما أحببته لنفسى ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسى وأقود أصلى وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها.

فقال الصاحب: هذا ظلم من القياس، أشد من الموت ما تمنى له الموت وأعز من النفس ما بذلت له النفس.

قال ابن حـــزم: إن بذلت نفسك لم يكن اختيارًا بل كان اضطرارًا، ولو

(١) "المأدبة أو فى الحب لأفلاطون " ص ٧٩ .

(٢) م.س ص ٨٣ .

أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها،وترك لقاءه اختيارًا منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها.

فقال الصاحب: أنت رجل جدلى ولا جدل فى الحب يلتفت إليه.

قال ابن حزم: إذا كان صاحبه مؤوفًا.

فقال الصاحب: وأى آفة أعظم من الحب (١).

ويبدو أن ابن حزم كان حادًا فى عاطفته لا يمل من الوصل المباح ورأيه القاطع فى ذلك أن المحب " كلما زاد وصلًا زاد اتصالا " (٢) وهذا الحوار وإن كان يدل على سعيه الدءوب فى إدخال السعادة على نفسه لا يتعارض فى الوقت نفسه مع رأيه الشخصى أن المحبة المؤكدة لا تنشأ إلا بعد الزمن الطويل بمعنى أنه لا يبغى السعادة العجلة أو الوقتية أو تلك التى تنشأ عن لمحة خاطفة.

وابن حزم بعد أن أرسى هذه القاعدة الأفلاطونية لعلة المحبة أخذ يبحث فى الأسباب المباشرة والظاهرة برؤية خاصة جدًا بعيدة كل البعد عن أى تأثير،ويرى أن أسباب (٣) المحبة إنما تنحصر فى أربعة أمور.

أولها: من أحب فى النوم

ثانيها: من أحب بالوصف

---

(١) "طوق الحمامة لابن حزم باب " الطاعة" ص ٥٥

(٢) م. س باب " الوصل" ص ٧٤

(٣) هذه الأسباب تمت مناقشتها فى مبحث تحت عنوان " علاقة الحب بالزمن" وأوضحت فيما سبق كيف وظفها ابن حزم وجعلها تشترك جميعًا فى نشأة الحب ، وثانى هذه الأسباب وهى من أحب بالوصف ، تم دراسته تحت عنوان " علاقة الحب بالإدراك الحسى" من هذا البحث وما قدم هنا جوانب أخرى غير ما سبق ذكره.

ثالثها: من أحب من نظرة واحدة

رابعها: من لا تصح محبته إلا مع المطاولة

وهذه الأسباب التى عرضها وناقشها ابن حزم ربما لم تكن جديدة إلا فى واحدة وهى "من أحب فى النوم " فلم أطلع على أن أحدًا قبل ابن حزم لفت الأنظار إلى أن الرؤيا فى المنام قد تكون من دواعى المحبة، وقد نص على أن ذلك أبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ولكن حرصًا منه على أن يجرى كلامه على نسق وحرصه أيضًا على الدقة فى حصر الأسباب بدأ بالأسهل والأهون ثم عرج لبقية الأسباب.

وابن حزم سرعان ما يوقفنا على مصادره التى استلهم منها ذلك السبب رغم غرابته فيقول "فمن أسبابه شيئ لولا أنى شاهدته لم أذكره لغرابته "(١) فيعتمد على تجربة أحد أصدقائه رأى فى نومه جارية فاستيقظ وقد ذهب قلبه بعد أن هام فيها حبًا، وابن حزم يقطع برأيه لصاحبه أن "من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد"(٢).

ويفصل ابن حزم بين الحقيقة والخيال وهو دائما يعشق الواقع ويفسر رؤية صاحبه بأنها من "حديث النفس وأضغاثها وداخل فى باب التمنى وتخيل الفكر "(٣).

ويؤكد ابن حزم على دور الخيال فى الحب إلا أنه يفرق بين نوعين من الخيال ويفرق كذلك بين نوعين من الرؤيا: الأولى: التى

---

(١) " طوق الحمامة " لابن حزم باب " من أحب في النوم " ص ٢٤ .

(٢) م . س. نفس الموضع .

(٣) " م . س. نفس الموضع .

تحدثنا عنها وهى أن يحب المرء فى المنام شخصًا لم يره قط ولا خلق ولا هو فى الدنيا، أما الثانية: فهى رؤية المحبوب المعروف لدى المحب ويحدثنا ابن حزم عن قنوع المحب بمزار طيفه،ولا يرى بأسًا من تسليم الخيال له "وهذا إنما يحدث عن ذكر لا يفارق وعهد لا يحول وفكر لا ينقضى فإذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف"(١)، ويذكر ابن حزم جملة من أقاويل الشعراء فى علة مزار الطيف ويصفها بعين الإنصاف بأنها أقاويل بديعة بعيدة المرمى مخترعة وكلٌ سبق إلى معنى من المعانى، ويقسم هو تقسيمات لطيفة لحال المزور ويحللها تحليلًا يتسم بالعمق كما يتسم بالأصالة والإبداع.

أما **ثانى الأسباب** وهو " من أحب بالوصف": لم يكن ابن حزم أول من أطلعنا على ذلك وإنما نستطيع أن نلحظ ذلك فى مؤلفات سبقت " الطوق " فالجاحظ مثلًا تحدث عن أثر الوصف فى وقوع المحبة ودور المرأة فى وصف جمال الحرائر لمن يرغب الزواج منهن إلا أن الجاحظ لا يثق فى هذا الوصف متعللًا بأن " النساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلًا ولا كثيرًا، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة،وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك وقد تحسن المرأة أن تقول، كأن أنفها السيف، وكأن عينها عين غزال وكأن عنقها إبريق فضة، وكأن ساقها جمارة، وكأن شعرها العناقيد، وكأن أطرافها المدارى،وما أشبه

(١) م. س باب " القنوع" ص١١٦.

ذلك: وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض" (١) واقتصر الجاحظ على "الوصف" فقط من الأسباب ولم يذكر الباقى مما ذكره ابن حزم وفرق ما بين دراسة الجاحظ ودراسة ابن حزم فالجاحظ لم يحلل شيئا مما ذكره ولم يعلق على فكرة،وناهيك عن الإطناب والتكرار فى عبارته، أما ابن حزم فقد تحدث عن تأثير الوصف على النفس ويرد هذا التأثير لنفس المحب ذاته وجولانه بفكره حول صورة سابقة متوهمة يقيمها المحب نصب ضميره ثم يرتد ابن حزم إلى أرض الواقع مرة ثانية فيذكر دور المعاينة فى نفس المحب فهى إما تؤكد المحبة أو تبطلها بالكلية،ودور الوصف فى المحبة وأثره فى النفوس مشهور عند العرب كما أن الإسلام لا يجد حرجًا من وصف المرأة للخاطب للترغيب فيها، وأما عن أشهر من أحببن بالوصف، فقصة نساء المدينة وحالهن عند سماع أوصاف الصديق عليه السلام مذكورة بالقرآن الكريم ولا تخفى على أحد.

أما **ثالث الأسباب:** وهو من أحب من نظرة واحدة فتلك أشهر أسباب المحبة وأكثرها شيوعًا بين الناس وربما تمالأ الباحثون على أن النظر أول علامات المحبة، يقول ابن داود فى مستهل كتابه: " قال بعض الحكماء: رب حرب جنيت من لفظة ورب عشق غرس من لحظة"(٢)، ويقول الإخوان: " واعلم يا أخى أن مبدأ العشق وأوله نظرة أو التفات نحو شخص من الأشخاص"(٣)، وإنما الذى يفرق ابن حزم عن غيره توظيفه للنظرة ودورها فى عملية المحبة: فنظرة الفجاءة سبب فى عملية

(١) "رسالة العشق والنساء " أبو عثمان الجاحظ ص ١٥٨

(٢) " الزهرة " لأبى بكر بن داود الظاهرى ج ١ ص ٤٥

(٣) "رسالة فى العشق" إخوان الصفا ص ٢٧٣

المحبة، وإدامة النظر من علامات المحبة وإشارات العين وسيلة التعبير عن هذه المحبة فابن حزم يدقق كثيرًا ويفرق كثيرًا ويدلى بآرائه الخاصة التى تفيض بالجدة أحيانًا والطرافة أحيانًا أخرى.

أما **رابع الأسباب** " من لا يحب إلا مع المطاولة " فابن حزم وإن كان جديدًا فى دراسته إلا أن فكرته ليست جديدة بل نجد لها ملمحًا فى عبارة قصيرة وردت بكتاب " الزهرة" بعنوان " من قدم هواه قوى أساه " يقول فيها ابن داوود:"من كان أول ما وقع به من أسباب المحبة استحسانًا ثم ينمى على الترتيب الذى وصفناه حالًا فحالًا حتى ينتهى إلى بعض الأحوال الصعاب التى ذكرناها كان زوالها إن زال بطيئا، ومن عشق بأول النظر سلا مع أول الظفر فإن لم يظفر بمن يهواه سلا إذا تعذر عليه ما يتمناه، فإذا وقع الهوى بأول نظر، ثم ارتقى صاحبه إرتقاء بغير ترتيب حتى صار مُدَلّهًا بمن يهواه قبل أن تطول معاشرته كان بقاء ذلك الهوى يسيرا وهكذا كل شيئ فى العالم إن اعتبرته وجدت ما ارتقى إلى هذه الغاية القصوى بغير ترتيب انحط انحطاطا طويلا"(١). ربما تأثر ابن حزم بعبارة "الزهرة" وخاصة انتماءه الفكرى لمذهب الظاهرية وابن داوود كما نعلم ابن مؤسس المذهب الظاهرى وخليفة والده في رئاسة المذهب ذاته، وربما صادف الاثنان ابن حزم وابن داوود شيئًا متأصلا فى ذاتيهما أعنى فكرة الحب الذى يتكون ببطء حبًا أصيلًا لا حبًا عابثًا، فربما نقل ابن حزم هذه الفكرة لأنها لاقت صدًا خاصًا فى نفسه، وربما كل

(١) " الزهرة" أبو بكر بن داود ج ١ ص ٤٣٦ .

ذلك، ولا عيب فى أن يشكل شخص وجدان شخص آخر، فلا مانع أن ينقل عنه إلا أن ابن حزم كان أمينا فيما ينقل عنهم ويذكرهم(١) بأسماهم، ينقدهم أو يمدحهم إلا أنه لا ينكر سبقًا لأحد كما لا ينكر فضلًا مثلما لا يحب أن ينكر عليه أحد فضلًا، فلم يكن هناك ثم مانع أن يخبرنا ابن حزم أنه نقل عن ابن داوود وعلى أى حال فابن حزم لم يكن مجرد ناقلًا- إن نقل- وهذه الفكرة على فرض تأثر ابن حزم فيها بابن داوود هى جزء من نسيج مترابط للنظرية التى وضعها ابن حزم فى الحب- كما سبقت الدراسة- ومعالجة ابن حزم للفكرة تجعلنا نستبعد أثر ابن داوود، ومنهج ابن حزم واضح لا لبس فيه، الخبرة الذاتية، وخبرات الناس، وتدعيم آرائه بالمصادر الدينية أحيانًا يقول ابن حزم: " وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسد آدم، وهو فخار فهاب وجزع، أدخل كرهًا وأخرج كرهًا. حدثناه عن شيوخنا "(٢)، وهذا التشبيه الذى أتى به ابن حزم فى هذا المقام يدل على أن ما دخل كرها لا يخرج إلا كرهًا وما دخل يسيرا يخرج يسيرًا فكذا المحبة.

---

(١) ففى باب " القنوع " مثلاً يذكر ابن حزم أقوال الشعراء فى علة مزار الطيف وذكر عدداً منهم : أبو اسحاق بن سيار النظام رأس المعتزلة ، وأبو تمام حبيب ابن أوس الطائى والبحترى وحينما شرع فى ذكر أشعاره عن علة مزار الطيف ذكر عبارة تدل على تواضعه الجم وأمانته فى النقل عنهم فقال: " وأنا أقول من غير أن أمثل شعرى بأشعارهم فلهم فضل التقدم والسابقة وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ولكن اقتداء بهم وجريا فى ميدانهم وتتبعا لطريقتهم التى نهجوا وأوضحوا" ثم ذكر أشعاره. راجع " الطوق" ص ١١٦ .

(٢) "طوق الحمامة " لابن حزم باب " من لا يحب إلا مع المطاولة" ص ٢٩ .

المطلب السادس: وحدانية الحب

ليس أمرًا بالغ الصعوبة أن نلحظ من هذه الدراسة الشيقة لابن حزم أنها تتسم بالطابع الأخلاقى، ولا نبالغ لو قلنا أن عاطفة إنسانية نبيلة كعاطفة الحب استطاع ابن حزم أن يخلع عليها معانى أخلاقية تتفق مع الفطرة السليمة وتأبى فى الوقت ذاته كل ما يتنافى مع قواعد الدين سواء فى مجال الشريعة أو حتى ما يقره فى مجال الذوق العام.

ووحدانية الحب واحدة من هذه المعانى وابن حزم حينما حدثنا عن الفرق بين المحبة الحقيقية والشهوة- كما مرت الدراسة- يقرر(١) أن من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين قد اختلطت عليه المحبة بالشهوة، وهو فى الحقيقة إنما يشتهى الصورة فقط وهذا الاشتهاء يسمى محبة على سبيل المجاز أما المحبة الحقيقية فإنها تأبى التعدد.

ولابن حزم أبيات(٢) من الشعر فى هذا المعنى تمتزج فيه فلسفته الخاصة عن وحدانية الحب بالروح الدينية الصرفة، ويشبه مدعى هوى الاثنين كأنه يتبع دينين ويدعوه بالكذاب فيقول:

كذب المدعى هوى اثنين حتما ∴ مثل ما فى الأصول أكذب مانى
ليس فى القلب موضع لحبيبين ∴ ولا أحدث الأمـــــــور بثانى
فكما العقل واحد ليس يـــدرى ∴ خالقا غير واحد رحمـــــــــان
فكذا القلب واحد ليس يهـــوى ∴ غير فرد مباعد أو مــــــدان
هو فى شرعة المودة ذو شك ∴ بعيد من صحة الإيمـــــــان

---

(١) م . س ص ٣١ .
(٢) م. س . نفس الموضع .

وكذا الدين واحد مســــــتقيم ∴ وكفور من عنده دينـــــــــــان

وابن حزم إنما يستند فى فكرته عن وحدانية الحب على العقيدة الدينية فكما يؤمن بالوحدانية فى العقائد يؤمن بها كذلك فى المحبة فالعقيدة إيمان بوحدانية الله، والمحبة أيضًا إيمان بشخص المحبوب، وأن شريعة المحبة لا تختلف عن الشريعة الدينية،فيقرر أن الوحدانية أصل للاثنين، فالعقل واحد والخالق واحد والدين واحد وكذلك لا يقبل القلب أن يكون موضعًا لحبين.

وهذا المبدأ الذى يقره ابن حزم وهو استحقاق المحبوب بالإفراد يسير جنبًا إلى جنب مع شخصيته التى تميل إلى الثبات والصدق وحفظ العهد،والنفور من الغدر والملل والخيانة وكل من كان نقى السريرة مثله كانت هذه صفته.

وهذه الأخلاق الإسلامية حفظها ابن حزم حتى صارت سمة من سماته الشخصية والله تعالى يقول فى كتابه الحكيم: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ... ﴾ (١) والآية تعنى أن الفطرة السليمة تأبى وتنفر من التعدد بدليل أن الله تعالى حصر حب الزوجة فى " الواحد" وقرن عدم العدلية بين الزوجات فى حال التعدد ليدل على أن التعدد يتنافى مع الحب لأن الأصل فى الزواج المودة والرحمة وإلا كان الله تعالى قادرًا على أن يزوج آدم بأكثر من حواء،وكان قادرًا على عمار هذه الدنيا فى لحظات، ومقصد رسولنا الكريم حينما قال: " اللهم لا تحاسبنى فيما لا أملك " يقصد الميل القلبى لإحدى الزوجات.

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٤) .

وعلى ذلك ففكرة ابن حزم عن توحيد المحبوب هى فكرة أصيلة فى الشريعة الإسلامية عرضها ابن حزم عرضًا عصريًا مدعمًا ما قاله بخبرته الذاتية وتجارب معارفه وأصحابه كعادة منهجه فى " الطوق"،ولقد تأثر ابن قيم الجوزية بهذه الدراسة إلى حد كبير،وقد جعلها مادة لأحد أبواب "روضة المحبين " ذكر فيه آراء وعبارات لابن حزم منسوبة إليه اعتمد عليها ابن القيم فى مناقشاته حيث يقول: "والمقصود أن المحبة تستلزم توحيد المحبوب فيها، وقد بالغ أبو محمد بن حزم فى إنكاره على من يزعم أنه يعشق أكثر من واحد وقال فى ذلك شعرًا ونحن نذكر كلامه وشعره" (١). ثم ذكر ابن القيم أبيات ابن حزم التى ذكرناها منذ قليل.

وسيظل الباحثون يذكرون لابن حزم "طوق الحمامة " هذه الأيقونة الفريدة التى تألقت شرقًا وغربًا واحتلت مكانًا بارزًا ليس فقط فى الفكر العربى الإسلامى ولكن كان لها مكانًا أكثر اتساعًا بين دراسات المستشرقين الغربيين عامة والأسبان على وجه الخصوص.

(١) "روضة المحبين" لابن قيم الجوزية ص ٢١٤ .

خاتمة البحث

وبعد، فكتاب " طوق الحمامة" لا شك أنه بحر لن تمل الغوص فيه، وموضوع الكتاب – أعنى الحب الإنسانى – لم يعد على الأقل فى نظرى أمرًا محظورًا أن يكتب فيه، وخاصة بعد أن أوقفنا الفقيه الإمام ابن حزم على مواطن الحل والحرمة تجاه هذه العاطفة النبيلة وبعد أن فهمنا منه أن الإباحة والتحريم فى الشرع لا يتوجه على الحب المطلق كعاطفة مخلوقة لله بل على موضوع هذا الحب وسلوكنا بإزائه وحالتئذ أعتقد أنه لا خوف من الحديث عن الحب وخاصة أنه أمر مباح وإلا كان محظورًا من باب أولى أن نتحدث عن أمور ثبتت حرمتها كالسرقة وشرب الخمر مثلا،ولا شك أنه لم يقل عاقل بذلك، والناس كما هم فى حاجة إلى توضيح شرائعهم هم فى حاجة كذلك إلى تقنين مشاعرهم فكيف نتجاهل موضوعًا حيويًا هامًا كموضوع الحب ونترك شبابنا عمدًا لا يعلمون عنه شيئًا بدعوى الفضيلة المزعومة حتى تصوروا الحلال حرامًا والحرام حلالًا. فالحب المباح الذى طريقه الزواج لم ينه عنه الشرع بل حث عليه لأنه أحرى بدوام العشرة وصدق رسول الله حينما قال: " ليس للمتحابون إلا الزواج" بمعنى أن الحب يصبح مشروعًا لو كان الهدف منه الزواج،ولذا لم يتحرج بعض الفقهاء من وصف أثر العشق المباح فى حياة الأزواج ففى " روضة المحبين" يقرر ابن القيم أن العشق المباح "يصفى العقل، ويذهب الهم، ويحمل الرجل على التحلى بالفضائل المادية والأخلاقية،وعلى الدقة والرقة فى معاملاته ويبعث على حسن اللباس وطيب المطعم ومكارم الأخلاق ويعلى الهمة،ويحمل على

طيب الرائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والمروءة وهو اختبار من أشق الاختبارات ومعاناة من أشد المعانات وهو بلاء الصالحين، ومحنة العابدين، وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان وهو خلق الكرام " وليت بيوتنا تعمر بالحب لأننا سنكون حالتئذ من أرقى شعوب الدنيا.

ومن صور تمجيد هذه العاطفة النبيلة فى الإسلام أن الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم التى فى مدح الرسول بأبيات من الغزل العفيف ولم ينههم الرسول عن ذلك وقصيدة " بانت سعاد" لحسان بن ثابت الملقب بشاعر الرسول أشهر مثال على ذلك.

وفى نهاية المطاف أود أن أسجل اعترافى بمخاوف اعترتنى فى بداية البحث أعتقد أن ليس لها وجودًا الآن، وكم احترمت عقولًا كان لها يد طولى فى أن أجترئ على هذا البحث وكانت سطورًا لأستاذنا د/ طاهر مكى أتذكرها كلما اعترانى الخوف وهذه السطور سجلها فى أثناء تحقيقه لكتاب " الطوق " وقد اعترته نفس المخاوف إذ يقول:" وأشهد أننى وقفت أكثر من مرة أمام بعض الحقائق، وبعض الفقرات كان فيها ابن حزم كعادته، جريئًا صريحًا، مرتفع الصوت، لا يكنى ولا يلمح ولا يشير، وإنما يعالج قضاياه مفكرًا دارسًا لا يتأثم ولا يتردد، وهممت أن أدع هذه الفقرات، ومع شيئ من الفكر والتأمل، رأيت ذلك جرمًا لا فى حق النص فحسب،وإنما فى حق التراث العربى، وفى حق أجيالنا الصاعدة فى أن تعرف كل شيئ،إن ما يرتضيه ابن حزم الأديب العالم، والفقيه الظاهرى،وما يقبله ذوق المسلمين فى قرطبة الزاهرة، عاصمة الأندلس أيام الخلافة، وما بعدها فى القرن العاشر الميلادى وما تلاه، ليس تدينا ولا ورعًا ولا تطورًا ولا محافظة أن ترفضه قاهرة القرن العشرين

ورائدة النهضة فى العالمين العربى والإسلامى ومن هنا أبقيت النص على حاله كاملا".

وبعد،،،

لعلى استطعت أن أضع الأمور فى نصابها وأن يحسب هذا العمل لى لا علىّ، والله الموفق والمستعان.

* * *

أهم نتائج البحث

إن أهم ما أستطيع الوقوف عليه من نتائج من خلال دراستى لفلسفة الحب عند ابن حزم ومن خلال دراستى لكتابه "طوق الحمامة فى الألفة والألاف" هى كالتالى:

١ – أصالة ابن حزم فى استخدامه للمنهج الاستبطانى

٢ – يعتبر ابن حزم أول من أجرى دراسته بشكل ميدانى من علماء المسلمين.

٣ – دراسة ابن حزم فى " الطوق" تخلو من الطابع الجدلى الذى تتسم به مأدبة أفلاطون مما يعنى اختلاف المنهج والرؤية والتناول بينهما.

٤ – اتسمت دراسة ابن حزم بالأصالة والإبداع والذاتية فى معالجته لقضية الحب الإنسانى.

٥ – نشأة ابن حزم بين الجوارى والمربيات اللاتى قمن بتعليمه أكسبته القدرة فيما بعد على تحليل أدق خلجات نفس المرأة والتعبير عن ذلك بقدرة فائقة.

٦ – ثراء الفكرة عند ابن حزم بحيث يكون باستطاعتنا توظيف عبارته فى أكثر من مضمون.

٧ – ترابط أفكار ابن حزم وعدم وجود فكرة تتناقض مع أخرى على مدى كتاب " الطوق"

٨ – يحق لنا أن نطلق على مذهب ابن حزم الخاص بموضوع الحب الإنسانى "نظرية الحب عند ابن حزم" فرؤيته عن الحب فى شمولها واكتمال عناصرها بجانب عبقرية منهجه ودقة تبويبه ومنطقية التسلسل

فى الفكرة بالإضافة إلى تناوله السلس للموضوع وأسلوبه السهل الشيق وتناغمه الرائع مع دنيا الواقع جعلته يفوق بكثير غيره من علماء المسلمين ويفوق كذلك عالم الأسطورة والخيال الذى فرضته علينا مأدبة أفلاطون عبر التاريخ.

٩ – كان من الممكن لابن حزم ألا يعتمد على أفلاطون فى تحديد ماهية الحب لأنه لا يتمشى مع مذهبه الواقعى.

١٠ – عدم إيمان ابن حزم بالحب الصوفى.

١١ – يعتبر ابن حزم هو الرائد الحقيقي لفن السيرة الذاتية في التاريخ العربي، كما يعتبر أيضًا رائدًا في مجالات أخرى فقد كان مؤرخًا ذو صفات خاصة جعلته رائدًا في هذا المجال كالصدق والضبط والدقة وقوة الملاحظة وحسن الاستدلال، كما يعتبر رائدًا أيضًا في مجال علم النفس فكتابه " الطوق " يعتبر من الدراسات المبكرة في علم النفس وله فيه آراء خاصة بعضها اليوم نظريات هامة في علم النفس " كنظرية التثبيت " نجده تحدث عنها وأشار إليها منذ ما يقرب من ألف عام.

١٢ – يبدو واضحًا جدًا أثر " المأدبة " علي الفكر الفلسفي الإسلامي في تحديد " ماهية الحب " بوجه خاص لا موضوع الحب الإنساني ككل لأن للمفكرين المسلمين إبداعات خاصة لها قيمتها في موضوع الحب والشواهد للمطلع علي ذلك كثيرة.

١٣ – تراثنا العربي الإسلامي مازال في حاجة ماسة إلى دراسة وإلى من يخرجه إلى النور فالفكر الذى أنار أوروبا في العصور الوسطى المسلمون أولى به في زماننا هذا.

* * *

المصادر والمراجع

١) **القرآن الكريم.**

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى).

٢) ذم الهوى، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه حلمى ابن اسماعيل الرشيدى (دار العقيدة ٢٠٠٤م / ١٤٢٥هــ) ط١.

ابن حزم الظاهرى (الإمام أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى).

٣) كتاب الأخلاق والسير المسمى "برسالة مداواة النفوس"، تحقيق إيفا رياض (دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٣٠ــ ٢٠٠٩م) ط٣.

٤) طوق الحمامة فى الألفة والألاف، تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفى، وقدم له الأستاذ إبراهيم الإبيارى (المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٨٣هــ - ١٩٦٤م).

٥) طوق الحمامة فى الألفة والألاف،تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكى(دار المعارف ١٤٠٠هــ - ١٩٨٠م) ط٣.

٦) طوق الحمامة فى الألفة والألاف، تحقيق نخبة من أساتذة الشريعة، د/نصر فريد واصل، د/ عبد العزيز محمد عزام، د/ محمد فهمى السرجانى (المكتبة التوفيقية، مطبعة الفجالة الجديدة ١٩٧٦م).

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان).

٧) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محى الدين عبد

الحميد (مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م) الجزء الأول ط١.

ابن داوود الظاهرى (أبو بكر محمد بن داوود الأصبهانى).

٨) الزهرة، تحقيق د/ إبراهيم السامرائى (مكتبة المنار، الأردن، الجزء الأول - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م) ط٢.

ابن سينا (الشيخ الرئيس أبو على بن سينا).

٩) رسالة فى ماهية العشق، ضمن مجموعة رسائل ابن سينا (مطبعة إبراهيم خروز_ استانبول ١٩٥٣).

ابن القيم (الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية).

١٠) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق أبو عدى أحمد سعد(الناشر دار البيان العربى ٢٠٠٦م).

ابن منظور (ابن منظور).

١١) لسان العرب، (مطبعة دار المعارف بالقاهرة) الأجزاء: ٢- ٣٣.

أبوريان (د/محمد على أبوريان)

١٢) فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة(الناشر، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٧) ط٥

الإبيارى (د/ إبراهيم الإبيارى)

١٣) مقدمة تحقيق "طوق الحمامة" (المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

إخوان الصفا (إخوان الصفا وخلان الوفا)

١٤) رسالة فى ماهية العشق،ضمن مجموعة رسائل إخوان الصفا (الدار الإسلامية، بيروت).

أفلاطون(أفلاطون الإلهى).

(15) المأدبة،أو "فى الحب " مع دراسة نقدية عن أثر المأدبة فى الفكر الفلسفى، تأليف وترجمة د/ على سامى النشار،دكتور الأب جورج شحاتة قنواتى، الأستاذ/عباس أحمد الشربينى (دار الكتب الجامعية ١٩٧٠).

التهانوى (الشيخ الأجل المولوى محمد أعلى بن على التهانوى)

(16) كشاف اصطلاحات الفنون،(دار صادر بيروت) الجزء الأول.

الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ)

١٧) كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (الناشر دار الكتاب العربى، بيروت – لبنان) الجزء الثالث.

١٨) رسالة فى العشق والنساء، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (الناشر، مكتبة الخانجى بمصر ١٣٩٩ – ١٩٧٩م) الجزء الثالث، ط ١.

الجرجانى (العلامة على بن محمد الشريف الجرجانى)

١٩) التعريفات، (مكتبة لبنان،طبعة جديدة ١٩٨٥م).

زكريا إبراهيم (الدكتور زكريا إبراهيم)

٢٠) مشكلة الحب، مجموعة مشكلات فلسفية (مكتبة مصر) ط٣

ابن حزم الأندلسى – سلسلة أعلام العرب – (الدار المصرية للتأليف والترجمة، مكتبة مصر ١٩٦٦م).

الزمخشرى (الإمام محمود بن عمر الزمخشرى)

(21) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الشهير بتفسير الكشاف (المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٤هـ) الجزء الثانى ط ١

صليبا (د. جميل صليبا)

٢٢) المعجم الفلسفى، (دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٨٠م) الجزء الأول ط١.

طاهر مكى (د.الطاهر أحمد مكى)

٢٣) دراسات عن ابن حزم وكتابه " طوق الحمامة "، (الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) ط٢

٢٤) مقدمة تحقيق "طوق الحمامة" (دار المعارف ١٩٨٠)

عزام (د/ عبد العزيز محمد عزام)

٢٥) مقدمة تحقيق "طوق الحمامة" (مطبعة الفجالة ١٩٧٦م).

عويس (د/ عبد الحليم عويس)

٢٦) ابن حزم الأندلسى وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى، (دار الاعتصام) ١٩٧٩م)

الفيروز اباذى (مجد الدين الفيروزاباذى)

٢٧) القاموس المحيط، (مطبعة السعادة بمصر - المكتبة التجارية الكبرى ١٣٣٢هـ - ١٩١٣م) الجزء الثالث.

الكندى (فيلسوف العرب، أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندى)

٢٨) رسالة فى حدود الأشياء ورسومها، ضمن مجموعة رسائل الكندى الفلسفية تحقيق د/ محمد عبد الهادى أبوريدة (دار الفكر العربى،مطبعة الاعتماد، مصر ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م).

الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحى الوشاء)

٢٩) الموشى أو الظرف والظرفاء (دار صادر - بيروت).

فهرس تفصيلى

* * *

فهرس قسم العقيدة

❋ ❋ ❋